

التعجب في شعر إبراهيم طوقان
دراسة نحوية تحليلية نقدية
بأبعادها النفسية والاجتماعية والسياسية

د. محمد مصطفى القطاوي

أستاذ النحو المشارك بقسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة الأقصى - غزة - فلسطين

التعجب في شعر إبراهيم طوقان دراسة نحوية تحليلية نقدية

بأبعادها النفسية والاجتماعية والسياسية

د. محمد مصطفى القطاوي

ملخص البحث

يتناول هذا البحث قضية نحوية بارزة، استوقفت الباحث في ديوان الشاعر إبراهيم طوقان وهي مسألة التعجب، ولربما كان ذلك بسبب كثرة ورود الجانب السماعي في تضاعيف شعره، وهو أمر يُدرك من الإحساس بمرامي التراكيب النحوية، وحاوّلنا أن نربط بين هذه التراكيب التي تتضمن التعجب في ديوان إبراهيم طوقان، وبين حالة الشاعر النفسية كدلالة معنوية تنبعث من الأسلوب النحوي، هذا إلى جانب التعجب القياسي مما يخضع للتبويب، وهذا جارٍ في أساليب العرب وفي القرآن الكريم.

ثم وقفنا أحياناً عند اختلاف وجهات النظر في موضوع الوظائف ودلالات التراكيب النحوية عند القدماء، ورأي المحدثين فيها، وهو أمر شكّل قضية تحتاج إلى بحثٍ من جديد.

Exclamation in Ibrahim Tuqan's Poetry A Critical Analytical Study: the Psychological, Social and Political Dimensions

Abstract

This study investigates an important grammatical issue that made the researcher of this study ponder it when reading the poetic collection of Ibrahim Tuqan, i.e. exclamation. This might be attributed to the fact that Tuqan's poetry tends to be heard or narrated. The researcher tried to make a link between structures that include exclamation in the collection on the one hand, and the psychological condition of the poet as an important element that appears in poetry on the other. Also, regular exclamation has been studied in this study. This issue is an approach of Arabs, and it is used in the Holy Quran.

The study also tackles the different opinions regarding functions and indications of grammatical structures in the past and nowadays. It is a matter that requires further investigation and scrutinizing.

أهمية البحث:

تَكْمُنُ أَهْمِيَّةُ هَذَا الْبَحْثِ فِي: كَوْنِهِ يَتَنَاوَلُ قَضِيَّةً نَحْوِيَّةً بَارِزَةً تَمَثَّلَتْ فِي تَتَبُّعِ أُسْلُوبِ التَّعْجُبِ فِي دِيْوَانِ إِبْرَاهِيمِ طُوقَانَ.

- وَكَذَلِكَ مَزَجَ النَّاحِيَةَ النَّحْوِيَّةَ بِالذَّلَالَةِ التَّرْكِيْبِيَّةِ وَالذَّلَالَةَ الشُّعُورِيَّةَ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمِ طُوقَانَ.

- تَوْظِيْفِ أُسَالِيْبِ تَعْجِيْبِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْهَا السَّمَاعِيَّةُ وَالْقِيَاسِيَّةُ، وَمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ؛ مِمَّا يَخْضَعُ لِلْإِحْسَاسِ الْمُنْبَثِقِ مِنَ السِّيَاقِ التَّعْبِيرِيِّ ذَاتِهِ.

أهداف البحث:

يَهْدَفُ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى مَا يَلِي:

- تَسْلِيْطِ بَعْضِ الضُّوْءِ عَلَى هَذَا الشَّاعِرِ الْمَأْسَاةِ، وَمَكَائِثِهِ بَيْنَ شُعْرَاءِ زَمَانِهِ.

- عَرْضِ أُسَالِيْبِ التَّعْجُبِ الْقِيَاسِيَّةِ وَالسَّمَاعِيَّةِ وَتَتَبُّعِهَا فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمِ طُوقَانَ.

- تَوْضِيْحِ الذَّلَالَاتِ التَّرْكِيْبِيَّةِ وَالذَّلَالَاتِ الشُّعُورِيَّةِ لِأَسَالِيْبِ التَّعْجُبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمِ طُوقَانَ.

- إِبْرَازِ الثَّقَافَةِ الْمُتَشَعَّبَةِ لِلشَّاعِرِ الْمَأْسَاةِ.

منهج البحث:

يَقُومُ مَنَهْجُ الْبَحْثِ عَلَى الْوَصْفِ وَالتَّحْلِيلِ وَالْإِحْصَاءِ فِي رِصْدِ أُسَالِيْبِ التَّعْجُبِ، وَتَسْجِيْلِهَا، وَدِرَاسَتِهَا مِنَ النَّاحِيَةِ النَّحْوِيَّةِ وَالذَّلَالِيَّةِ مَعَ شَرْحٍ وَتَعْلِيلٍ وَتَحْلِيلٍ لِمَا يُمَكِّنُ تَعْلِيلَهُ أَوْ تَحْلِيلَهُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمِ طُوقَانَ.

تقديم:

يَحْسُنُ بِنَا قَبْلَ الْخَوْصِ فِي الْقَضِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ، أَنْ تُسَلِّطَ بَعْضَ الضُّوءِ عَلَى هَذَا الشَّاعِرِ الْمَأْسَاءِ، وَعَلَى مَكَائِهِ الشُّعْرِيَّةِ بَيْنَ شُعْرَاءِ زَمَانِهِ فِي أَوَاخِرِ الثَّلَاثِينَاتِ وَأَوَائِلِ الْأَرْبَعِينَاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْمَاضِي؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا غَنَى عَنْهُ إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نُرْبِطَ الظَّاهِرَةَ النَّحْوِيَّةَ "التَّعَجُّبُ" فِي شِعْرِهِ بِالْحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي صَدَرَ عَنْهَا فِي تَجْرِبَتِهِ، وَالْعَلَاقَةَ بَيْنَ هَذَا وَالظُّرُوفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالشَّاعِرِ إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمَعْصَمِ كَمَا يَقُولُ الْعَرَبُ.

رُبَّمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ حَالَةً فَرِيدَةً بَيْنَ شُعْرَاءِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُمْ: "أَبُو سَلْمَى عَبْدُ الْكَرِيمِ الْكَرْمِيُّ، وَعَبْدُ الرَّحِيمِ مَحْمُودٌ، وَشَقِيقَتُهُ فَدَوَى، وَسَلْمَى خَضْرَاءُ الْجَيْوسِي"، ذَلِكَ أَنَّهُ تَأَثَّرَ بِالثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ تَأَثُّراً كَبِيراً فِي أَثْنَاءِ دِرَاسَتِهِ فِي الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ بِيَرُوتَ، حَيْثُ؛ إِنَّهُ نَهَلَ - مُعْجَباً - مِنْ تِلْكَ الثَّقَافَةِ شَيْئاً كَثِيراً، وَاقْتَفَى أَثَرَ شُعْرَاءِ تِلْكَ الثَّقَافَةِ، فِي الشَّكْلِ وَالْمَضْمُونِ؛ حَتَّى فِي تَعْرِيفِهِ لِلشُّعْرِ، كَمَا يَقُولُ إِحْسَانُ عَبَّاسٌ: "فَهُوَ فِي الشَّكْلِ يَأْخُذُ طَابِعَ الْمَقْطُوعَاتِ عِنْدَ شُعْرَاءِ إِنْجِلْتْرَا مِثْلَ "هَائِنِي، وَأَوْسْكَارَ وَآيْلِدَ، وَرُوبَرْتِ سِنْدِي"^(١)، وَغَيْرِهِمْ، فَهُوَ مُنْبَهَرٌ بِهِذِهِ التَّمَاذِجِ حَتَّى فِي مَضَامِينِهَا، وَعَلَى ذَلِكَ نَجِدُهُ مُتَحَرِّراً مِنْ وَحْدَةِ الْقَافِيَةِ، وَمِنْ وَحْدَةِ الْمَوْضُوعِ أَحْيَاناً، كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَعْتَمِدُ نِظَامَ الْمَقْطُوعَاتِ... عَلَى آيَةِ حَالٍ، فَتِلْكَ قَضِيَّةٌ أَدْبِيَّةٌ مَكَائِيَّةٌ التَّقْدُ الْأَدْبِيُّ، وَأَفْلَامُ التُّقَادِ، أَمَّا شَخْصِيَّةُ الشَّاعِرِ فَقَدْ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْمَأْسَاءِ مِنْهَا إِلَى أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، فَهُوَ مَرِيضٌ بِذَاتِ الْمَعْدَةِ، وَهُوَ رُومَانِيٌّ عَاشِقٌ إِلَى أَبْعَدِ حُدُودِ الرُّومَانِيَّةِ وَالْعِشْقِ، وَهَذَا الْأَمْرَانِ: الْمَرَضُ، وَالْعِشْقُ عَجَلًا بِمَنْيَتِهِ، فَلَمْ يُعَمَّرْ طَوِيلًا، فَقَدْ وُلِدَ فِي ١٩٠٦ م "وَتُوفِّيَ فِي الثَّانِي مِنْ شَهْرِ مَآيُو فِي ١٩٤١ م"^(٢)، حَيْثُ إِنَّهُ عَمَّرَ خَمْسَةً وَثَلَاثِينَ عَامًا، وَهِيَ فَتْرَةٌ زَمَنِيَّةٌ قَصِيرَةٌ، تَكَادُ أَنْ تَكُونَ الْعُمُرَ الَّذِي يَعِيشُهُ

العَبَاقِرَةُ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا الشَّاعِرِ، فَابُو تَمَامٍ، وَطَرْفَةُ بِنُ الْعَبْدِ وَأَبُو الْقَاسِمِ الشَّابِّي، وَبَدْرُ شَاكِرِ السِّيَابِ، كُلُّهُمْ رَحَلُوا وَهُمْ فِي هَذَا الْعُمُرِ تَقْرِيْبًا، إِنَّهَا مَأْسَاةُ الْعَبَاقِرَةِ الَّذِينَ قُدِّرَ لَهُمْ أَلَّا يَعِيشُوا طَوِيلًا، فإِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ يُعَدُّ كَمَا نَرَى صَرِيحَ الْمَرَضِ وَالْعَوَانِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، وَرَبَّمَا كَانَ فَشَلُهُ فِي الْحُبِّ هُوَ الَّذِي عَجَلَ بِنَهَائَتِهِ كَمَا سَرَى.

أَمَّا مَوْضُوعُ "ظَاهِرَةِ التَّعْجُبِ" فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمِ طُوقَانَ، فَهُوَ مَوْضُوعٌ قَفَزَ عَلَى السَّطْحِ مِنْ بَيْنِ الظَّوَاهِرِ التَّحْوِيَّةِ الْأُخْرَى، وَلَعَلَّهُ مُرْتَبِطٌ بِالمَسَارَاتِ الْوُجْدَانِيَّةِ الَّتِي تَسْرِي فِي قَصَائِدِهِ، وَالمَوْضُوعَاتِ الَّتِي عَالَجَهَا؛ حَيْثُ إِنَّهُ يَطْرَحُ قَضَايَا تُثِيرُ التَّعْجُبَ، سَوَاءً أَكَانَتْ تَخْصُصُهُ شَخْصِيًّا، أَمْ تَمَسُّ الْجَوَانِبَ السِّيَاسِيَّةَ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ.

ثُمَّ إِنَّا اخْتَرْنَا هَذَا الْبَابَ مِنْ أَبْوَابِ التَّحْوِ، لِعِلْمِنَا بِأَنَّ التَّعْجُبَ مَوْضُوعٌ قَدْ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ المَتَعَارَفِ عَلَيْهِ مِنَ الصِّيغِ القِيَاسِيَّةِ وَهِيَ: مَا أَفْعَلُ، وَأَفْعَلُ بِ، وَقَبْلَ أَنْ نَتَطَرَّقَ إِلَى تَفْصِيلِ ذَلِكَ بِالشَّوَاهِدِ المُنثَوْرَةِ الْوَارِدَةِ فِي التَّرَاثِ، وَالكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّا نَقِفُ وَقَفَةً قَصِيرَةً عِنْدَ مُصْطَلَحِ "التَّعْجُبِ" وَمَفْهُومِهِ عِنْدَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ، فَهُوَ اسْتِعْظَامُ فِعْلٍ فَاعِلٍ ظَاهِرٍ لِمَزِيَّةٍ أَوْ صِفَةٍ مَوْصُوفٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَوْصُوفِ اخْتِيَارٌ فِي هَذَا الْوَصْفِ، يَقُولُ ابْنُ مَنظُورٍ: "أَصْلُ التَّعْجُبِ فِي اللُّغَةِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَا يُنْكِرُهُ وَيَقِلُّ مِثْلَهُ، قَالَ: قَدْ عَجِبْتُ مِنْ كَذَا، أَوْ هُوَ انْفِعَالٌ يَحْدُثُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ الشُّعُورِ بِأَمْرٍ يُجْهَلُ سَبَبُهُ، أَوْ يُدْعَى الْجَهْلُ بِهِ، يَقُولُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: التَّعْجُبُ النَّظَرُ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ وَلَا مُعْتَادٍ^(٣)، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قِيلَ فِي المَثَلِ الْعَرَبِيِّ: "إِذَا عَرِفَ السَّبَبُ بَطَلَ الْعَجَبُ"^(٤).

أَمَّا النُّحَاةُ فَيَرُونَ أَنَّهُ يَأْتِي قِيَاسِيًّا بِصِيغَتَيْنِ كَمَا ذَكَرْنَا -سَابِقًا- وَهُمَا: أَفْعَلُ بَعْدَ "مَا" التَّعْجِيْبِيَّةِ وَدَلِكَ مِثْلُ قَوْلِكَ: مَا أَحْسَنَ زَيْدًا، وَمَا أَكْرَمَ عَلِيًّا، وَالصِّيغَةُ الثَّانِيَّةُ: يَجِيءُ بَعْدَهُ مَجْرُورًا بِالْبَاءِ وَدَلِكَ مِثْلُ قَوْلِكَ: أَكْرَمَ بِمُحَمَّدٍ، وَأَجْمَلُ بِزَيْدٍ، فَهُمَا فِي مَعْنَى: مَا

أَكْرَمَ مُحَمَّدًا، وَمَا أَجْمَلَ زَيْدًا ! وَقَدْ يَأْتِي - كَمَا ذَكَرْنَا - عَلَى السَّمَاعِ، وَدَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٥)، وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ: لِلَّهِ دَرُهُ فَارِسًا^(٦) ! وَلِلَّهِ أَنْتَ ! فَكُلُّهَا أَسَالِيبٌ تُفِيدُ التَّعَجُّبَ، وَلِكِنَّهَا لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الصِّعَتَيْنِ الْقِيَاسِيَّتَيْنِ.

وَإِلَى جَانِبِ ذَلِكَ فَإِنَّا سَنَجِدُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ عِبَارَاتٍ تُوحِي بِالتَّعَجُّبِ مِنْ خِلَالِ الْإِحْسَاسِ بِهَذِهِ الْعِبَارَاتِ، وَرَبَطَهَا بِالسِّيَاقِ الْفِكْرِيِّ الشُّعُورِيِّ عِنْدَهُ لِأَسِيْمَا وَأَنَّ سِيرَتَهُ كُلُّهَا مَدْعَاةٌ لِلتَّعَجُّبِ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ فِي مُعْظَمِ قَصِيدِهِ، وَلَعَلَّ مَا يُثِيرُ عَجَبَ هَذَا لَا يُثِيرُ عَجَبَ ذَلِكَ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾^(٧)، وَكَذَلِكَ انْظُرْ إِلَى إِحْسَاسِ فَتَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - "يُوشَعُ بْنُ نُونٍ حِينَ أَوِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَنْطَلَقَ الْحُوتُ الَّذِي مَعَهُمَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾^(٨)، فَحَرَكَةُ السَّمَكَةِ فِي الْبَحْرِ أَثَارَتْ عَجَبَ يُوشَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَذَلِكَ حَالَةُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا تُشِيرُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾^(٩)، قَالَهَا مُتَّعَجِّبًا، وَمِثْلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَسُشِيرُ إِلَيْهِ - لِأَحِقًا - حِينَ الْوُقُوفِ عَلَى شَوَاهِدِ التَّعَجُّبِ بِكُلِّ صَيْغِهِ الْقِيَاسِيَّةِ وَالسَّمَاعِيَّةِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ، وَرَأَى بَعْضُ عُلَمَاءِ النُّحُوِّ وَالدَّارِسِينَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضَايَا، الَّتِي تُمَسُّ فِيهَا جَوَانِبُ التَّرَاكِيِبِ مِنْ نَاحِيَّةٍ، وَمَعَانِي النُّحُوِّ وَدَلَالَاتِ الْعِبَارَةِ النَّحْوِيَّةِ مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى.

القصيدَةُ الأولى: ملائكة الرحمة

يقول إبراهيم طوقان:

بيضُ الحَمائمِ حَسْبُهُنَّ أُنَى أُرْدُدُ سَجْعَهُنَّ
رَمَزُ السَّلَامَةِ وَالْوَدَاعَةِ مُنْذُ بَدَأَ الخَلْقَ هُنَّ
يَهْبِطْنَ بَعْدَ الحَوْمِ مِثْلَ الوَحْيِ، لِاتِّدْرِئِ بِهِنَّ
فَإِذَا وَقَعْنَ عَلَى العَدِيرِ تَرَبَّتْ أَسْرَابُهُنَّ
يَقَعُ الرِّشَاشُ إِذَا انْتَفَضْنَ لِأَلْسَانِ لِرُؤُوسِهِنَّ
وَتَحَالَهُنَّ بِلا رُؤُوسٍ حِينَ يُقِيلُ لَيْلَهُنَّ
مَا الكَهْرُبَاءُ وَطِبُّهَا بِأَجَلٍ مِنْ نَظَرَاتِهنَّ^(١٠)

في أواخر عام ١٩٢٤م دخل إبراهيم طوقان مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت؛ ليعالج من القرحة في معدته، فلبث في المستشفى مدة غير قصيرة، ثم عاد إلى بلده نابلس للتقاهة، ومن وحي إقامته في المستشفى المذكور جاءت هذه القصيدة. أمّا التعجب في هذه الأبيات المختارة من قصيدته، فقد جاء على غير القياس؛ بل إنه جاء من خلال إحساسنا بالحالة النفسية التي سيطرت على الشاعر، وهو راقد في المستشفى يرقب سرب الحمام يطير ويهبط، وهو في واقع الحال، يرقب سرب الممرضات دوات اللباس الأبيض اللواتي يترددن عليه، فكانت هذه الرابطة اللامحة بين الحمام والفتيات، لقد أثار إعجابه وعجبه هبوط سرب الحمام بسرعة البرق، وكأن هذا السرب وحي من السماء لا تدري به، يتضح هذا من قوله: يهبطن بعد

الحَوْمِ مِثْلَ الْوَحْيِ، لَا تَدْرِي بِهِنَّه، وَلَعَلَّ حَرَكَةَ الْمَرَضَاتِ - مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ - فِي غُدُوهِنَّ وَرَوَاحِهِنَّ تُشْبِهُ حَرَكَةَ الْحَمَامِ، فَهُنَا إِعْجَابٌ شَدِيدٌ، وَهَذَا أُسْلُوبٌ تَعْجُبٍ وَرَدَ فِي أُسْلُوبِ خَبْرِيٍّ، وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا آخَرَ أوردَ هَذَا الْخَبَرَ بِهَذَا السِّيَاقِ، لَمَا كَانَ لَهُ هَذَا الْوَقْعُ الْمُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ مَا يُثِيرُ إِعْجَابَ إِنْسَانٍ قَدْ لَا يُثِيرُ إِعْجَابَ آخَرَ، وَتَظْيِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾^(١١)، فِي قِرَاءَةِ حَمَزَةِ وَالْكَسَائِي^(١٢) وَخَلْفَ، بِتَاءِ الْمُتَكَلِّمِ الْمَضْمُونَةِ، أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: بَلْ عَجِبْتَ أَنَا...^(١٣)، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْعَجَبُ إِنْ أُسْنِدَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَيْسَ مَعْنَاهُ مِنَ اللَّهِ كَمَعْنَاهُ مِنَ الْعِبَادِ؛ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(١٤) لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ كَمَعْنَاهُ مِنَ الْعِبَادِ^(١٥).

يَقُولُ الْقُرْطُبِيُّ مُعَلِّقًا عَلَى الْآيَةِ: "... وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: التَّعَجُّبُ مِنَ اللَّهِ إِنْكَارُ الشَّيْءِ وَتَعْظِيمُهُ، وَهُوَ لَعَةُ الْعَرَبِ"^(١٦).

وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: فَإِذَا وَقَعْنَ عَلَى الْعَدِيرِ تَرْتَبَتْ أَسْرَابُهُنَّ، فَهُنَا إِحْسَاسٌ بِالتَّعَجُّبِ لَدَى الشَّاعِرِ مِنْ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ تَحْرُكِ الْحَمَامِ، وَوُقُوعِهِنَّ فِي غَدِيرِ الْمَاءِ، إِنَّهُ نِظَامٌ وَتَرْتِيبٌ بِالْإِلْهَامِ وَالْفِطْرَةِ.

إِنَّمَا لَا تُذْرِكُ هَذَا التَّعَجُّبَ إِلَّا إِذَا اسْتَنْبَطْنَا خَفَايَا الشَّاعِرِ، وَوَلُوعَهُ بِالْجَمَالِ، يَنْضِحُ هَذَا مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ حِينَمَا كَانَ يَتَّبَعُهُ فَأَيْلًا:

إِنَّ الْجَمَالَ إِذَا تَجَمَّعَ شَمَلُهُ فَالْوَيْلُ كُلُّ الْوَيْلِ لِلشُّعْرَاءِ^(١٧)

هَكَذَا يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ فِي غَزَلِيَّاتِهِ، وَتَشْبِيهِهُ بِ"م.ص" فَتَاءَ كَفَرَ كَنَّهُ بِالرَّاقِصَةِ الْأَسْبَابِيَّةِ وَبَعِيرِهَا مِنَ الْغَيْدِ يُعِيدُ إِلَيْنَا حِكَايَةَ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ مَعَ صَاحِبَتِهِ نُعْمٍ، وَالثَّرِيَّا، وَغَيْرِهِمَا، يَقُولُ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:

إِنِّي أَمْرٌ مَوْلَعٌ بِالْحُسْنِ أَتْبَعُهُ لَأَحْظَ لِي فِيهِ إِلَّا لَدَّةَ النَّظْرِ^(١٨)

ثُمَّ يُقَدِّمُ لَنَا مَشْهَدًا تَعْجُيبًا آخَرَ، لَكِنَّهُ هَذِهِ الْمَرَّةُ يُورِدُهُ صَرَاخَةً، بِأَنَّ نَظَرَاتِ الْمَرَضَاتِ فِيهَا الشِّفَاءُ لَهُ بِأَجَلٍ مِنَ الْكَهْرُبَاءِ وَطِبِّهَا، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: مَا الْكَهْرُبَاءُ وَطِبُّهَا بِأَجَلٍ مِنْ نَظَرَاتِهِنَّ، وَهَكَذَا يُشْعِرُنَا إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانَ بِتَعْجُباتِهِ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ آيَاتِ قَصِيدَتِهِ لَا بِالنَّسَقِ التَّعْيِيرِيِّ، فَتَغْيِيرُهُ أَمِيلٌ إِلَى الْبَسَاطَةِ، وَلَكِنْ بِالرُّوحِ الْكَامِنَةِ فِي الْكَلِمَاتِ، وَكَيْفَ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأَوْعِيَةَ اللَّفْظِيَّةُ تِلْكَ الشُّحْنَةَ الْعَجِيَّةَ مِنَ الْأَحَاسِيْسِ، وَوَضَحَ إِنَّ هَذِهِ الْأَسَالِيبَ تَضَمَّنَتْ مَعْنَى التَّعْجُبِ، وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرٌ^(١٩)، قَالَ تَعَالَى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾^(٢٠)، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَاهَا لِلْيَلَى ثُمَّ وَاهَا وَاهَا هِيَ الْمُنَى لَوْ أَنَّنَا نِلْنَاهَا^(٢١)

فالتحسر هنا يتضمن معنى التعجب أيضا، وهذا باب لا تحد حدوده من البداية، ذلك أنه يخرج من دائرة القياس المبوب والسماعي، كذلك إلى دائرة تعتمد أصلا على الإحساس، وإذا ما أخضعناها إلى التراكيب النحوية فقدت مدلولها التعجبي.

يقول فاضل السامرائي: "والأقرب إلى الصواب أن يُقال: إِنَّ هَذِهِ عِبَارَةٌ تُفِيدُ التَّعْجُبَ، وَالتَّعْجُبُ مَعْلُومٌ، ثُمَّ إِنَّ التَّعْجُبَ انْفِعَالٌ قَدِيمٌ فِي نَفْسِ الْبَشَرِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ وَضِعَتْ لَهُ صِيغَتُهُ ابْتِدَاءً؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّعْيِيرِ عَنْهُ قَبْلَ كَثِيرٍ مِنَ التَّعْيِيرَاتِ، وَلَا دَاعِيٍّ لِلدُّخُولِ فِي تَعْلِيلَاتٍ تُفْسِدُ الْمَعْنَى وَالذَّوْقَ، وَلَعَلَّ الَّذِي أَلْجَأَهُمْ إِلَى هَذَا هُوَ الْإِعْرَابُ، فَالْتُّحَاةُ يَرَوْنَ إِعْرَابَ كُلِّ تَعْيِيرٍ، وَلَوْ أَلْجَأَهُمْ إِلَى مَسْخِ التَّعْيِيرِ وَإِفْسَادِهِ"^(٢٢).

القَصِيدَةُ الثَّانِيَّةُ: مَعِينُ الْجَمَالِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانَ:

أَسْعِدِي بِزُورَةٍ أَوْ عِدِينِي طَالَ عَهْدِي بِلَوْعَتِي وَحَيْنِي
ضَجَعْتِي فِي الرِّيَاضِ بَيْنَ الرِّيَاحِينَ قَرِيباً مِنْ مَاءِ عَيْنِ مَعِينِ
مَا أَشَدَّ الْهَوَى، وَمَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ وَمَا أَبْعَدَ الْكَرَى عَن جُفُونِي
إِنَّمَا هَذِهِ الطَّبِيعَةُ أُتْسِي وَمُعِينِي إِنْ لَمْ أَجِدْ مِنْ مُعِينِ
أَتَقَرَّى جَمَالَ دَاتِكَ فِي مَا أَبْدَعْتَهُ يَمِينُهَا مِنْ فُتُونِ
فِي الْعَدِيرِ الصَّافِي، وَأَنْشُودَةَ الـ طَيْرِ، وَطِيبِ الْوُرُودِ وَالْيَاسَمِينِ^(٢٣)

هَذِهِ قَصِيدَةٌ نُظِمَتْ عَامَ ١٩٢٧ م، وَهِيَ الْفَتْرَةُ الَّتِي بَلَغَ فِيهَا دَرُورَةُ الْحُبِّ، وَدَرُورَةُ الشُّهُرَةِ كَمَا يَقُولُ إِحْسَانُ عَبَّاسٌ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى دِيْوَانِهِ: "فَفِي سَنَةِ ١٩٢٦ م، طَلَعْتُ فِي الْجَامِعَةِ بِيْرُوتَ فِتْنَةً تَمَثَّلْتُ فِي صُورَةِ فِتْنَةِ فِلَسْطِينِيَّةِ طَالِبَةٍ هُنَاكَ، فَأَحْيَيْتُ قُلُوباً وَسَحَقْتُ قُلُوباً..."

صَارَ قَوِيَّ الْمَلَاخِظَةِ، حَاضِرَ الْعَاطِفَةِ، مُتَوَثِّرَ الْأَعْصَابِ، صَارَ كَثِيرَ الْمُطَالَعَةِ، صَيَّاداً لِلْمَعَانِي، بَسِيطَ الْعِبَارَاتِ، سَهْلَ الْفَهْمِ، مُصِيباً....

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ يَضْرِبُ عَلَى قَيْثَارَةِ الْعَزْلِ، فَيُطْرِبُ سُمَاعَهُ، وَيُعْجِبُ قُرَاءَهُ، وَقَدْ أَبْنَتْهُ فِتْنَتُهُ بِمِقْدَارِ مَا أَحَبَّهَا، ثُمَّ ضَرَبَ الدَّهْرُ بَيْنَهُمَا، فَكَانَتْ نِهَآيَةَ حُبِّهِ مَأْسَاءً خَلَفَتْ فِي قَلْبِ الشَّاعِرِ جُرْحًا كَانَ يَنْدَمِلُ حِينًا، وَتَنْظِفِيءَ الدُّكْرَى حِينًا آخَرَ، فَيَنْعَكِسُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي شِعْرِهِ....

فَهُوَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، يَعْزِفُ عَلَى قَيْثَارَةِ حُبِّهِ، وَتَعْلَقُهُ الشَّدِيدِ بِفِتْنَةِ "كَفَرَ كَنَّهُ" الَّتِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ شِعَابَ نَفْسِهِ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ جَاءَ فِي قَوْلِهِ: مَا أَشَدَّ الهَوَى، وَمَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ، وَمَا أَبْعَدَ الكَرَى عَن جُنُونِي، إِنَّهُ تَعَجُّبٌ قِيَاسِيٌّ عَلَى وَزْنِ مَا أَفْعَلَ فِي العِبَارَاتِ الثَّلَاثِ.

وَقَدْ جَاءَتِ العِبَارَاتُ مُتتَابِعَةً مُتسَلِّسَةً مُتسَلِّسَةً مُنطِقِيًّا أَوْ حِسِّيًّا، فَشِدَّةُ الهَوَى أَدَّتْ إِلَى طَوْلِ اللَّيْلِ، وَكَأَنَّنا أَمَامَ المَلِكِ الضَّيِّلِ امْرِئِ القَيْسِ فِي مُعَلَّقَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انجَلِ بَصُحْ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ^(٢٤)

فَالْحَالَةُ وَاحِدَةٌ مُتَشَابِهَةٌ هُنَا وَهُنَاكَ، هَوَى مُؤَجَّجٌ، وَعَبْرَةٌ تَتَرَفَّقُ، وَمُجَافَاةٌ لِلنُّومِ، إِنَّهُ أَمْرٌ أَثَارَ تَعَجُّبَ إِبرَاهِيمَ طَوْقَانَ، كَمَا أَثَارَ تَعَجُّبَ مَنْ سَبَقُوهُ مِمَّنْ هُمْ عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَقَدْ أوردَ تَعَجُّبَاتٍ أُخْرَى، وَهِيَ هُنَا تَعَجُّبٌ بِالطَّبِيعَةِ الَّتِي لَجَأَ إِلَيْهَا، فَوَجَدَ فِي أَحْضَانِهَا المَلَادَ وَالسَّكِينَةَ، إِنَّهُ يُقَدِّمُ صُورَةَ أَخَادَةٍ، وَلَوْحَةَ جَمِيلَةً لِلطَّبِيعَةِ... العَدِيرِ الصَّافِي، وَأَشْوَدَةَ الطَّيْرِ، وَطِيبَ الوُرُودِ... إِنَّهَا جَمَالِيَّاتٌ أَثَارَتْ تَعَجُّبَهُ عَلَى غَيْرِ القِيَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ تَعَجُّبٌ مُنْبَعُهُ الحُسْنُ، وَالرَّفْقَةُ، وَاللَّمْحَةُ الخَاطِطَةُ لِمَا حَوْلَهُ، تِلْكَ الَّتِي يَنْتَهِجُهَا فِي مَنْهَجِهِ الشَّعْرِيُّ العَزَلِيُّ.

فَالتَّعَجُّبُ هُنَا انْفِعَالٌ فِي النَّفْسِ عِنْدَ شُعُورِهَا بِمَا يَخْفَى سَبْبِهِ، وَلِذَا يُقَالُ: إِذَا ظَهَرَ السَّبَبُ بَطَلَ العَجَبُ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُتَعَجِّبٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ^(٢٥)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾^(٢٦)، وَيُعَلَّقُ السَّمِينُ الحَلِيبِي عَلَى ذَلِكَ قَائِلًا: «والمُرَادُ بِالتَّعَجُّبِ هُنَا، وَفِي سَائِرِ القُرْآنِ الإِعْلَامُ بِحَالِهِمْ أَنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهَا...»^(٢٧)، وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا الأَسْلُوبَ التَّعَجُّبِيَّ هُوَ لُغَةٌ أَهْلِ اليَمَنِ، وَيَتَضَحُّ هَذَا مِنْ قَوْلِ القُرْطُبِيِّ...: «وَلَكِنْ مَا أَجْرَاهُمْ عَلَى النَّارِ! وَهِيَ لُغَةٌ يَمَنِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ، قَالَ الفَرَّاءُ: أَخْبَرَنِي الكَسَائِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنِي قَاضِي اليَمَنِ أَنَّ خِصْمِينَ اخْتَصَمَا إِلَيْهِ، فَوَجَبَتْ اليَمَنِ عَلَى أَحَدِهِمَا، فَحَلَفَ؛ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: مَا أَصْبَرَكَ عَلَى اللَّهِ!...»^(٢٨).

الْقَصِيدَةُ الثَّلَاثَةُ: ذِكْرَى دِمَشْقَ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

يَا لَهْوَلِ الْوَعَى وَقَدْ هَاجَ سُلْ
أَسْدٌ فَوْقَ ضَامِرٍ عَرَبِيٍّ،
أَرْهَقْتَهُ الْمَنُونُ، ثُمَّ أَنْامَ
أَيُّ حَرْبٍ أَتَارَ ظَلَمَ فَرَنْسَا
إِيهِ رُوحَ الشَّهِيدِ زُورِي فِلَسْطِينَ،
يَا فِلَسْطِينَ هَلْ لَدَيْكَ سَرِيٌّ
أَيْنَ مِنَّا الْأَبِيُّ؟ أَيْنَ الْمُعْزِي

طَانٌ وَأَضْحَى يَجِيشُ كَالْبُرْكَانِ
شَاهِرٌ لِلْوَعَى حُسَامًا يَمَانِيًّا
تُهُ لِيَوْمٍ مُحَجَّلٍ أَرْوَكَانَ
فَدَهَاهَا مَا لَيْسَ بِالْحُسْبَانَ
وَطُوفِي قُدْسِيَّ بِالْمَغَانِي
غَيْرُ ذِي مَطْمَعٍ وَلَا مَتُونِ
أَيْنَ مِنَّا مُعَدَّبُ الْوَجْدَانِ

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ تَدْخُلُ فِي دَائِرَةِ الرَّثَاءِ، وَإِثَارَةِ الْهَمَّةِ بِمُنَاسَبَةِ اسْتِشْهَادِ الْمَجَاهِدِ
السُّورِيِّ أَحْمَدَ مَرْيُودَ عَلَى يَدِ الْإِسْتِعْمَارِ الْفَرَنْسِيِّ، وَقَدْ نَظَّمَهَا فِي نَابُلُسَ ١٦ تَمُّوزَ ١٩٢٦ م.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَفِي قَوْلِهِ: "يَا لَهْوَلِ الْوَعَى!!" تَعَجُّبٌ جَاءَ بِصِيغَةِ التَّنَادَى، "يَا،"
وَبَعْدَهَا حَرْفُ جَرٍّ، جُرِّيهِ مَا بَعْدَهَا وَأُضِيفَتْ إِلَى الْوَعَى، وَهُوَ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعَجُّبِ
الْمَشْهُورَةِ يَقُولُ ابْنُ يَعِيشَ: "إِذَا قَصِدَ بِالتَّنَادَى التَّعَجُّبُ وَلَيْسَ التَّنَادَى الْحَقِيقِيُّ، وَذَلِكَ
مِثْلُ قَوْلِهِمْ: "يَا لِلْمَاءِ كَأَنَّهُمْ رَأَوْا عَجَبًا وَمَاءً كَثِيرًا، فَقَالُوا: تَعَالَ يَا عَجَبُ وَيَا مَاءُ" (٥)،
وَكَأَنَّ تَقُولَ: يَا لِعَظْمَةِ اللَّهِ! يَا لِرُزْقَةِ السَّمَاءِ! يَا لِطَافِ اللَّهِ! وَهُوَ تَعَجُّبٌ قَوِيٌّ يَدُلُّ
عَلَى الْعَايَةِ مِنْ إِثَارَةِ الْمَشَاعِرِ، وَأَنْبَهَارِ الْأَحَاسِيْسِ تَجَاهَ مَوْقِفٍ مِنَ الْمَوَاقِفِ، أَوْ مَشْهَدٍ
مِنَ الْمَشَاهِدِ، وَهُوَ يَتَعَجَّبُ هُنَا مِنْ عَظْمَةِ الْحَرْبِ أَوْ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي خَاضَهَا الشَّهِيدُ أَحْمَدُ
مَرْيُودَ فِي مُقَارَعَتِهِ لِلْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ ائْتَدَّ أَثَرُهُ؛ لِيَكُونَ الْمَشْهَدُ بَرُكَانًا مِنْ
الْبَرَائِكِ الْثَائِرَةِ، وَأَنَّ الْبَطْلَ لَيْتَ يَمْتَطِي جَوَادًا عَرَبِيًّا، وَيَمْتَشِقُ حُسَامًا يَمَانِيًّا.

وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي قَوْلِهِ: أَيُّ حَرْبٍ أَتَارَ ظَلَمَ فَرَنْسَا!، هُنَا اسْتَفْسَارٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيهِ إِتَارَةٌ وَدَهْشَةٌ اسْتَبَدَّتْ بِالشَّاعِرِ، مِنْ قَبِيلِ الاسْتِعْرَابِ الَّذِي يَحْدُثُ أَمَامَ أَيِّ مَوْقِفٍ لَا يَخْضَعُ لِلْمَتَعَارَفِ عَلَيْهِ مِنَ الْقِيَمِ وَالْمَثَلِ الْعُلْيَا، كَأَن تَقُولَ: أَيُّ جَرِيْمَةٍ ارْتَكَبْتَ يَا هَذَا؟ إِنَّهُ سُؤَالَ لَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِسْتِفْهَامُ الْحَقِيقِيُّ، وَإِنَّمَا يُرَادُ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ، أَوْ مَا يُؤَمِّعُ إِلَيْهِ التَّعْبِيرُ، وَهَذَا فِي وَاقِعِ الْحَالِ مُرْتَبِطٌ بِحَالَةِ الشَّاعِرِ النَّفْسِيَّةِ، وَكَرْهِهِ لِلْإِسْتِعْمَارِ وَبَاطِلِهِ، وَتَعَاظُفِهِ مَعَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ السُّورِيِّينَ.

وَكَذَلِكَ التَّعَجُّبُ فِي قَوْلِهِ: "إِيهِ رُوحَ الشَّهِيدِ زُورِي فِلَسْطِينَ" هُنَا إِعْجَابٌ بِالْبَطُولَةِ السُّورِيَّةِ، وَقَدْ بَلَغَ التَّعَجُّبُ عِنْدَهُ دَرَجَةً عَالِيَةً إِلَى الْحَدِّ الَّذِي جَعَلَهُ يَتَمَنَّى أَنْ تَحْدُثَ هَذِهِ الْمَوَاقِفُ فِي فِلَسْطِينَ مَوْطِنِهِ الَّذِي يُوشِكُ عَلَى الضِّيَاعِ...، مِثْلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: يَا فِلَسْطِينَ هَلْ لَدَيْكَ سَرِيٌّ^(٢٩) أُسْلُوبٌ إِنْشَائِيٌّ وَرَدَّ فِي صِيغَةِ النَّدَاءِ، وَلَكِنْ فِيهِ مَشَاعِرُ التَّهَكُّمِ وَالسُّخْرِيَّةِ مَلْمُوسَةً مِنْ خِلَالِ اسْتِبْطَانِ الْعِبَارَةِ، وَعَلَاقَتِهَا بِرُوحِ الشَّاعِرِ الَّذِي أَخَذَ يَسْتَهْجِنُ تَصْرُفَاتِ بَنِي وَطْنِهِ غَيْرَ الْمَسْئُولَةِ، وَعَدَمِ اكْتِرَائِهَا بِمَا سَيُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ الْبِلَادِ، وَكَأَنَّهُ يَعْجَبُ مِنْ انْعِدَامِ السَّرَاةِ. يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَا يُصْلِحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سُرَاةَ لَهُمْ وَلَا سُرَاةَ إِذَا جُهَاَلَهَا سَادُوا^(٣٠)

وَنَظِيرُ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْكَافِرِينَ فِي شُعَيْبٍ عَلَيْهِ

السَّلَامُ: ﴿ قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا^(٣١) ﴾، وَمِنْ التَّعَجُّبِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ: أَيْنَ مِنَّا الْأَيْبِيُّ؟ أَيْنَ الْمُعْزِيُّ... هُنَا تَعَجُّبٌ وَرَدَّ فِي صِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ مُشَبَّعٍ بِالْحُسْرَةِ وَالْأَلَمِ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَدْعِي أُمُورًا عَصِيَّةً، وَهَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ.

التَّعَجُّبُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ...

فالتَّعَجُّبُ عِنْدَ الشَّاعِرِ جَاءَ فِي صُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَمَا لَحَظْنَا، وَكُلُّ هَذِهِ التَّعَجُّبَاتِ هِيَ مِنْ قَبِيلِ مَا ظَهَرَ حُكْمُهُ وَخَفِيَ سَبَبُهُ^(٣٢)، كَمَا أَلَمْنَا إِلَى ذَلِكَ فِيمَا سَبَقَ وَمِثْلُهُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾^(٣٣)، يَقُولُ أَبُو حِيَانَ: «الظَّاهِرُ أَنَّهُ تَعَجَّبَ مِنْ إِفْرَاطِ كُفْرِهِ، وَالتَّعَجُّبُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِينَ إِذْ هُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى...»^(٣٤)، فَالتَّعَجُّبُ يَكُونُ مِمَّا يُؤْمَرُ بِهِ الْأَدْمِيُونَ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى كَقَوْلِهِ: «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ!، أَي: اعْجَبُوا أَنْتُمْ مِنْ كُفْرِ الْإِنْسَانِ، وَيَجُوزُ عَلَى مَعْنَى التَّوْبِيخِ، وَلَفْظُهُ لَفْظُ الاسْتِفْهَامِ، أَي: أَيُّ شَيْءٍ أَكْفَرَهُ»^(٣٥)، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَعْتَبِرُهَا اسْتِفْهَامًا، وَهُوَ يَتَّصِفُ بِالتَّعَجُّبِ، بِمَعْنَى أَنْ تَكُونَ مَا أَدَاةُ اسْتِفْهَامِ، وَلَيْسَتْ أَدَاةُ تَعَجُّبٍ^(٣٦).

القَصِيدَةُ الرَّابِعَةُ: يَا مَوْطِنِي

يَقُولُ / إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

عَجَبًا لِقَوْمِي مُتَعَدِّينَ وَتَوْمًا
عَجَبًا لِقَوْمِي كُلَّهُمْ بُكْمٌ وَمَنْ
مَرَحَى لِشُبَانَ الْبِلَادِ إِذَا غَدَا
مَرَحَى لِشُبَانَ الْبِلَادِ فَمَالَهُمْ
وَعَدُوَّهُمْ عَنِ سُحْقِهِمْ لَا يَنْتَنِي
يَنْطِقُ يَقُلُ يَا لَيْتَنِي وَلَعَلَّنِي
كُلُّ بَغِيرٍ بِبِلَادِهِ لَمْ يُفْتَنِ
إِلَّا السَّمُوُّ إِلَى الْعُلَى مِنْ دِيدِنِ^(٣٧)

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ أُلْقِيَتْ فِي حَفْلَةٍ تُوَزِعُ الشَّهَادَاتِ فِي مَدْرَسَةِ التَّجَاحِ الْوَطَنِيَّةِ فِي

نَابُلُسَ ١٩٢٥ م.

وَوَاضِحٌ فِيهَا أَنَّ التَّعَجُّبَ أَرَخَى ظِلَالَهُ فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ، فَبَقِيَ قَوْلُهُ عَجَبًا لِقَوْمِي.. حَيْثُ كَرَّرَهَا مَرَّتَيْنِ؛ لِيُؤَكِّدَ هَذَا الْأَمْرَ الْاسْتِغْرَابِيَّ الْمُدْهِشَ فِي اللَّوْمِ وَالتَّقْرِيعِ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ مَشُوبٌ بِالسُّخْرِيَّةِ اللَّادِعَةِ الَّتِي تُعْتَبَرُ دَيْدَنُ الْبَارِزِ فِي كُلِّ قَصَائِدِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَهَذَا التَّعَجُّبُ وَرَدَ نَظِيرُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمٌّ

فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾ آيَةٌ مَسْحُوتَةٌ بِالتَّعْجُبِ مِنْ هَوْلَاءِ الْكُفْرَةِ الَّذِينَ لَمْ تَهْزُهُمْ آيَاتُ اللَّهِ الْعَجِيبَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ الَّذِينَ اسْتَسَلَمُوا لِلتُّومِ وَالْقُعُودِ، وَغَفَلُوا عَمَّا يَتَرَبَّصُّ بِهِمْ مِنْ مَكَائِدَ وَمُؤَامِرَاتٍ، وَهُمْ فِي غَفْلَتِهِمْ سَادِرُونَ، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ:
وَطَنْ يُبَاعُ وَيُشْتَرَى وَتَصِيحُ: "فَلْيَحْيِ الْوَطْنَ!"^(٣٩)
وَكَذَلِكَ التَّعْجُبُ فِي قَوْلِهِ:

مَرَحَى لَشُبَّانِ الْبِلَادِ إِذَا غَدَا
كَلُّ بَعِيرِ بِلَادِهِ لَمَّ يُفْتَنِ
مَرَحَى لَشُبَّانِ الْبِلَادِ فَمَا لَهُمْ
إِلَّا السُّمُؤُ إِلَى الْعَلَى مِنْ دِيدَنْ
انظُرْ فِي قَوْلِهِ: "مَرَحَى لَشُبَّانِ الْبِلَادِ" حَيْثُ كَرَّرَهَا مَرَّتَيْنِ أَيْضاً فَهُوَ تَعْجُبٌ مُبْطَنٌ عَلَى سَبِيلِ الْأَمَلِ الَّذِي يُرَاوِدُ الشَّاعِرَ فِي أَنْ يُحَقِّقَ شُبَّانُ الْبِلَادِ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةَ، وَيَبْدُو أَنَّ الْحَالَ فِي وَقْتِهِ كَانَ لَا يَسُرُّ لِدَلِكَ فَهُوَ يَسْتَحِثُّ الشَّبَابَ عَلَى النُّهُوضِ بِالمَسْئُولِيَّةِ، وَأَنْ يَتَشَرَّبُوا حُبَّ الْوَطَنِ، إِنَّهُ تَعْجُبٌ مِنْ شَيْءٍ يَتَمَنَّى حُصُولَهُ...

واضحٌ أَنَّهَا تَعْجَبَاتٌ وَرَدَتْ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ "مَا أَفْعَلُ، وَأَفْعَلُ بَ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ أَحَاسِيسَ التَّعْجُبِ الَّتِي ابْتَنَتْ عَنِ الْمَوْقِفِ الْمُؤَلِّمِ، وَلَكِنَّ التُّحَاةَ رَكَّزُوا عَلَى الْقِيَاسِ وَمَا وَرَدَ مِنْ صَيِّغِ الْمُنَادَى وَالِاسْتِفْهَامِ كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:
يَامَا أَمِيلِحَ غَزْلَانَا شَدَنْ لَنَا مِنْ هَوْلِيَانِكُنَّ الضَّالِّ وَالسَّمْرِ^(٤٠)
فَقَدْ جَاءَ هُنَا نِدَاءٌ وَتَصْغِيرٌ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي قَوْلِ الشُّعْرَاءِ^(٤١).

القَصِيدَةُ الْخَامِسَةُ: يَا سُرَاةَ الْبِلَادِ*

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

يَا سُرَاةَ الْبِلَادِ يَكْفِي الْبِلَادَا
انْتِدَابُ أَحَدٍ مِنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ
مَا الَّذِي تَفْعَلُونَ وَالْجَوُّ مُرَبَّدٌ
أَفْرَعْتُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سِوَى الْمَجْدِ
كَيْفَ يَلْقَى مِنْ هَادِمِيهِ بُنَاةً
مَا أَذَابَ الْقُلُوبَ وَالْأَكْبَادَا
وَأُورَى مِنَ الْمَنِيَا زِنَادَا
وَهَذِي الْأَعْدَاءُ تَقْضِي الْمُرَادَا
لَسِ يَحْتَاجُ هِمَّةً وَجَهَادَا
كَيْفَ يَرْجُو مِنْ جَارِحِيهِ ضِمَادَا^(٤٢)

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ نُظِمَتْ ١٩٢٥ م، وَيَبْدُو أَنَّ سُرَاةَ الْبِلَادِ فِي زَمَانِهِ كَانُوا عُمِي الْبَصِيرَةَ، مُقْفَلِي الْأَفْنَدَةَ، فَانْطَلَقُوا وَرَاءَ الْمَصْلِحَةِ الدَّائِيَّةِ، وَرَكَّبُوا مَطِيَّةَ الْوَجَاهَاتِ الْفَارِغَةَ، وَالْمَظَاهِرَ الزَّائِفَةَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُهَيِّئُ فِيهِ بَرِيطَانِيَا فِلَسْطِينَ وَطَنَا لِلْيَهُودِ، تَحْقِيقًا لَوَعْدِ بِلْفُورِ الْمَشْتُومِ الَّذِي أَشَارَ إِلَى خُطُورَتِهِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ... وَهُوَ يُخَاطِبُهُمْ سَاخِرًا مُتَهَكِّمًا... يَتَضَحُّ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: مَا الَّذِي تَفْعَلُونَ وَالْجَوُّ مُرَبَّدٌ!! تَعَجُّبٌ وَرَدَ فِي صُورَةٍ اسْتَفْهَامٍ سَاخِرٍ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ يَوْمِيٌّ إِلَى تَفَاهَةِ هَؤُلَاءِ السُّرَاةِ الْعَافِلِينَ، تَعَجُّبٌ يُدَكِّرُنَا بِتَعَجُّبِ نَصْرِ بْنِ سِيَارٍ حِينَ خَاطَبَ بَنِي أُمَيَّةَ فِي آخِرِ أَيَّامِهَا قَائِلًا:

فَقُلْتُ مِنَ الْمَصِيبَةِ لَيْتَ شِعْرِي
أَأَيَقَاطُ أُمَيَّةَ أَمْ نِيَامُ؟^(٤٣)

وَصَدَقَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

فَالدَّهْرُ آخِرُهُ شَبَبَةٌ بِأَوْلِهِ
نَاسٌ كَنَاسٍ وَأَقْوَامٌ كَأَقْوَامِ^(٤٤)

وَكَدَلِكَ الشَّانُ فِي قَوْلِهِ: أَفْرَعْتُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سِوَى... انْظُرْ إِنَّهُ تَعَجُّبٌ سَاخِرٌ، وَنَظِيرٌ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^(٤٥)، سُخْرِيَّةٌ لاذِعَةٌ فِي

قَالَ بٍ تَعَجُّبِي نَهْكَمِي، وَهَذَا هُوَ أَسْلُوبُ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّمْحَةِ
الشُّعْرِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِمَعَانِي الشُّحْرِيَّةِ مِنْ رِجَالِ بِلَادِهِ، وَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾^(٤٦)، وَهُنَاكَ تَمَازُجٌ كَثِيرَةٌ وَرَدَتْ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الشُّحْرِيَّةِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ خِلَالِ الْإِنْدَارِ وَالْوَعِيدِ،
وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: كَيْفَ يَلْقَى مِنْ هَادِمِيهِ بِنَاهُ؟! هَا هُوَ يَعْرِفُ عَلَى الْقِيَّارَةِ نَفْسَهَا، هُوَ
تَعَجُّبٌ مِنْ خِلَالِ الْإِسْتِفْهَامِ التَّهْكَمِيِّ السَّاحِرِ، وَهُوَ هُنَا فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ أَبْلَغُ وَأَشَدُّ
أَثْرًا مِنَ الصِّيغِ الْقِيَاسِيَّةِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا.

كُلُّهَا تَعَجُّبَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ الصُّورِ خَارِجَةٌ عَنِ الْقِيَاسِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ:
لِلَّهِ دَرَةٌ فَارِسًا^(٤٧)، وَلِلَّهِ أَتَتْ^(٤٨)، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: وَيَا جَارَتَا مَا أَتَتْ جَارَهُ^(٤٩) وَنَظِيرُهُ
مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَا جَارَتِي، مَا كُنْتَ جَارَهُ، بَأْتِ لِتَحْزُنُنَا عَفَارَهُ^(٥٠)

القَصِيدَةُ الْخَامِسَةُ: فِي الْمَكْتُبَةِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

رَاقِبْتُبُتْهَا، فَشَتَّهَدْتُ	أَنَّ اللَّهَ أَجْزَلَ فِي الْهَيْبَةِ
حَمَلَ التَّرَى مِنْهَا عَلَى	تُورِ الْيَدَيْنِ وَقَلْبِهِ
وَسَقَاهُ فِي الْفِرْدُوسِ مَخْـ	تُومَ الرَّحِيْقِ وَرَكْبَهُ
فَإِذَا يَهَا مَلِكٌ تَنْزُ	زَلٌ لِلْقُلُوبِ الْمُتَعَبَةِ
وَرَأَيْتُ فِي الْفَمِ بَدْعَةً	خَلَابَةً مُسْتَعْدَبَهُ... ^(٥١)

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ نُظِمَتْ عَامَ ١٩٢٦ م، وَتَرْجِعُ قِصَّتُهَا إِلَى أَنَّ الْآنِسَةَ م. ص. فَتْنَةُ
طَلَعَتْ فِي عَامِ ١٩٢٦ م فِي الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ بِبِيرُوتَ، وَهِيَ مِنْ كُفْرُكْتَةَ " قَضَاءِ

التَّعَجُّبُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طَوْقَانَ...

النَّاصِرَةَ، وَكَانَ أَنْ تَعَلَّقَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانَ، فَأَصْبَحَتْ مُلْهِمَتُهُ وَمُعَدَّبَتُهُ، وَقَدْ رَأَاهَا فِي مَكْتَبَةِ الْجَامِعَةِ، فَنَظَمَ فِيهَا هَذِهِ الْعَزَلِيَّةَ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ وَرَدَ فِي قَوْلِهِ: رَاقِبْتَهَا، فَشَهِدْتُ أَنَّ اللَّهَ أَجَزَلَ فِي الْهِبَةِ، هَذَا التَّعَجُّبُ يُقَابِلُ قَوْلَ الْقَائِلِ: يَا لَرَوْعَةِ الْجَمَالِ! وَهُوَ تَعَجُّبٌ لَهُ دَلَالَةُ الْوَلِّهِ وَالصَّبَابَةِ الَّتِي عَانَى مِنْهَا الشَّاعِرُ جَرَاءَ شَعْفِهِ بِهَذِهِ الْفَتَاةِ.

وَيَسْتَمِرُّ الشَّاعِرُ فِي عَرْضِ آيَاتِ جَمَالِهَا الَّتِي أَثَارَتْ شِدَّةَ إِعْجَابِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَشِدَّةَ هَيْبَتِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَهِيَ - مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ - حُورِيَّةٌ هَبَّتْ مِنَ الْفِرْدَوْسِ، وَهِيَ مَلَكٌ يُرِيحُ الْقُلُوبَ الْمُتَعَبَةَ، ثُمَّ يُبْدِي إِعْجَابَهُ بِتَغْرِهَا وَتَنَائِيهَا النَّيِّرَاتِ، إِنَّ كُلَّ مَا فِيهَا آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْإِبْدَاعِ الْعَظِيمِ... وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ أَسْلُوبَ التَّعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طَوْقَانَ جَاءَ عَلَى غَيْرِ الْمَأْلُوفِ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّمْحَةِ السَّرِيعَةِ، وَالنُّكْتَةِ الْعَابِرَةِ، يُصْرِّحُ بِهِ أحياناً، وَيَسْتَسْتُرُّ عَلَيْهِ أحياناً أُخْرَى، وَكَأَنَّ دِيْوَانَهُ فِي مَعْرَضِ غَزَلِيَّاتِهِ غَدَاً تَعَجُّباً كُتُّهُ بِهَذِهِ الْفَتَاةِ النَّاصِرِيَّةِ الَّتِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ أَنْفَاسُهُ، وَفَجَّرَتْ يَنَابِيعَ الشُّعْرِ عِنْدَهُ.

فالأسلوبُ التَّعَجُّبِيُّ يُجْرِي عَلَى نَفْسِ النِّسْقِ، وَقَدْ خَرَجَ عَنِ دَائِرَةِ الْقِيَاسِ،

ونظير ذلك ما جاء في قول الشاعر:

كفى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا^(٥٢)

عُمَيْرَةٌ وَدَعَّ إِذَا تَجَهَّزْتَ غَادِيَا

الْقَصِيدَةُ السَّادِسَةُ: تَحِيَّةُ الرِّيْحَانِي

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانَ:

مَرْحَبًا بِالْبُشُوعِ وَالْعَبْقَرِيَّةِ
لِمُلُوكِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ
بِكَ يَا صَاحِبَ الْبَنَانِ النَّدِيَّةِ

مَرْحَبًا بِالْحَكِيمِ مُحْيِي الْمَعْرِي
مَرْحَبًا بِالْعَظِيمِ أَكْرَمِ ضَيْفِ
لَمْ يَزِدْنَا قَدُومَكَ الْيَوْمَ عِلْمًا

حُمِلَتْ هَذِي الْبَنَانُ يَرَاعَا قَبَلُونَا كَيْفَ الْقَوَى السَّحْرِيَّةَ
نَبَّهَ الْقَوْمَ يَا أَمِينَ وَسَلَهُمْ أَيْنَ بَاتَتْ تِلْكَ الْنُفُوسُ الْأَيَّةُ^(٥٣)

هذه القصيدة أُلقيت في النادي العربي بـبأبلس ١٩٢٧م، تحيةً للأديب والشاعر أمين الريحاني، يُعدُّد فيها مآثره، ويحثُّه على أن يثبت في العرب روحاً جديدةً؛ ليفيقوا من غفلتهم، ويتنبهوا للأخطار المحيطة بهم، ويوقفوا ضياع فلسطين.

أما التعجبُ الواردُ في قول الشاعر:

مَرَحَبًا بِالْحَكِيمِ مُخَيِّ الْمَعْرِي مَرَحَبًا بِالنُّبُوغِ وَالْعَبْقَرِيَّةِ
فَهُوَ تَعْدَادٌ لِمَاثِرِ الضَّيْفِ، مُعَبَّرًا عَنْ مَدَى إِعْجَابِهِ بِهِ، فَهَذَا تَعَجُّبٌ مُتَضَمِّنٌ
يُسْتَشْفَى مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ النَّفْسِيِّ وَالشُّعُورِيِّ عِنْدَ إِبرَاهِيمَ طَوْقَانَ.

وكذلك الشأنُ في قوله: قَبَلُونَا كَيْفَ الْقَوَى السَّحْرِيَّةَ، إنه تعبيرٌ تعجُّبيُّ بقُدرة أمين الريحانيِّ الأدبيَّةِ والفكريةِ.. كَأَنَّ تَقُولَ: هَذِهِ يَارِعَةً كَيْفَ^(٥٤)، إنه غايةُ التعجبِ من الأمرِ المُشَاهِدِ حَسِيًّا كَانَ أَمْ مَعْنَوِيًّا.

وأما ما جاء في قوله: أَيْنَ بَاتَتْ تِلْكَ الْنُفُوسُ الْأَيَّةُ؟! فَهُوَ - كَذَلِكَ - تَعْيِيرٌ
تَعَجُّبِيٌّ وَرَدَّ فِي صِبْغَةٍ اسْتَفْهَامٍ سَاحِرٍ، أَوْ مَشْحُونٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَسْرَةِ وَالْأَسَى.. أَوْ أَنَّهُ
مُعْجَبٌ بِتِلْكَ الْنُفُوسِ أَيَّامَ عُنْفُونِهَا، فَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُنَوِّعَ الشَّاعِرُ بَيْنَ أُسَالِيبِ
التَّعَجُّبِ غَيْرِ الْقِيَاسِيَّةِ.

والأسلوبُ هُنَا تَضَمِينٌ لِلتَّعَجُّبِ، وَلَعَلَّ هَذَا يَسُوقُنَا إِلَى النَّظَرِ فِي مَوْضُوعِ تَقْدِيرِ
النُّحَاةِ الْعَرَبِ فِي تَعَدُّدِ الْوُظَائِفِ التَّحْوِيَّةِ.

يقول د. عبد المجيد عابدين: "ظَلَّتْ عِنَايَةُ النُّحَاةِ بِشَكْلِ التَّرَكِيبِ تَتَزَايِدُ حَيْلًا بَعْدَ حَيْلٍ حَتَّى صَرَفْتُهُمْ عَمَّا وَرَاءَ هَذَا الشَّكْلِ مِنْ مَعَانٍ وَمَدْلُولَاتٍ، وَلَأَسِيْمًا الْمَعَانِي الْأَوْلِيَّةَ الَّتِي لَا بَدَّ لِلْبَاحِثِ النَّحْوِيِّ أَنْ يَنْظُرَ فِيهَا، وَلَكِنَّ نَظْرَةَ النُّحَاةِ أَصْبَحَتْ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مُنْحَصِرَةً فِي الْجَانِبِ الشَّكْلِيِّ مِنَ التَّرَاكِيبِ، وَأَصْبَحَتْ الْأَلْفَاظُ فِي نَظَرِ النَّحْوِيِّ كَالدُّمَى الْحَشِيَّةِ لَيْسَ فِيهَا مَعْنَى وَلَا رُوحَ، يُفَسِّرُونَ حَرَكَاتِهَا وَسَكَنَاتِهَا تَفْسِيرًا آيًّا مَحْضًا، لَا يَعْابُونَ أَنْ وَرَاءَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَالتَّرَاكِيبِ عُقُولًا تُفَكِّرُ، وَنُفُوسًا تُعْبِرُ، وَقَدْ لَاحَظَ إِبْرَاهِيمَ مِصْطَفَى هَذَا الصَّنِيعَ مِنَ الْقَدَامَى فَحَاوَلَ أَنْ يُجَدِّدَ"^(٥٥).

القَصِيدَةُ السَّابِعَةُ: تَقَاوُلٌ وَأَمَلٌ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

اللَّهَ ثُمَّ اللَّهَ مَا أَحَلَّى التُّضَامُنَ وَالْوِفَاقَا !
بُورِكَتْ مُؤْتَمَرًا تُأَلَّفَ لَا نِزَاعَ وَلَا شِقَاقَا
كَمْ مِنْ فُؤَادٍ رَاقَ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ رَاقَا
تِلْكَ النُّفُوسُ مِنَ الطُّفُولَةِ أَرْضِعَتْ ذَاكَ اللَّبَنَ
سَشَاتٌ عَلَى حُبِّ الْخِصَامِ، وَبَاتَ يَرْعَاهَا الضَّعْنُ"^(٥٦)

أُلْقِيَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي الْحَفْلَةِ الَّتِي أَقَامَتْهَا كَلِيَّةُ التَّجَاكِحِ الْوَطَنِيَّةِ فِي نَابُلُسٍ فِي نَهَايَةِ الْعَامِ الدَّرَاسِيِّ أَيَّارَ ١٩٢٨ م، وَكَانَتْ الرُّوحُ الْوَطَنِيَّةُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْوَهْنِ وَالتَّشَاؤُمِ، كَمَا رَاجَ فِي أَتْنَاءِ ذَلِكَ سُوقِ الدَّجَالِينِ مِنْ مُحْتَرَفِي الْوَطَنِيَّةِ الزَّائِفَةِ. أَمَّا التَّعَجُّبُ هُنَا فَقَدْ وَرَدَ عَلَى الْقِيَّاسِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: مَا أَحَلَّى التُّضَامُنَ وَالْوِفَاقَا؛ حَيْثُ جَاءَ عَلَى صِيغَةٍ مَا أَفْعَلَ، وَهُوَ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَابِ الشَّدِيدِ الْمَمْرُوجِ

بِالْأَمَلِ الصَّادِقِ، وَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الْوَطَنِيَّةِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ، وَمَهَّدَ ذَلِكَ التَّعَجُّبَ مِنَ الْأَمْرِ لَوْ حَدَثَ بِإِيرَادِ لَفْظِ الْجَلَالَةِ مَرَّتَيْنِ، وَذَلِكَ حِينَمَا قَالَ: اللَّهُ ثُمَّ اللَّهُ، وَهُوَ هُنَا يُدَكِّرُهُمْ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ يُرَاقِبُ الْأَعْمَالَ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ... مَعَ أَنَّ لَفْظَ الْجَلَالَةِ "اللَّهُ" قَدْ يَرِدُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شَيْءٍ لِغَيْرِ هَذَا الْإِنْبَهَارِ، وَهَذَا الشَّيْءُ الدَّلَالِيُّ يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ لَدَى الْمُتَكَلِّمِ، فَقَدْ يَدُلُّ عَلَى الْاسْتِعْرَابِ مِثْلُ قَوْلِكَ: "اللَّهُ" دُونَ مَدٍّ، وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى الْإِنْبَهَارِ "اللَّهُ" بِالْمَدِّ، وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى السُّخْرِيَّةِ وَعَدَمِ الرِّضَا "اللَّهُ اللَّهُ" بِالتَّخْفِيفِ، كَمَا يَقُولُ الدُّكْتُورُ تَمَّامُ حَسَانُ فِي كِتَابِهِ "اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَبْنَاهَا وَمَعْنَاهَا" (٥٧).

وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي قَوْلِهِ: تِلْكَ التُّفُوسُ مِنَ الطُّفُولَةِ أَرْضِعَتْ ذَاكَ اللَّبَنَ، تَعَجُّبٌ كَبِيرٌ مِنْ سُلُوكِ بَعْضِ أَبْنَاءِ شَعْبِهِ الَّذِينَ تَرَبَّوْا عَلَى الْخِصَامِ، وَالتَّفَاقِ، وَالكَذِبِ، وَكَأَنَّهُمْ أَرْضِعُوا هَذِهِ السُّلُوكِيَّاتِ مِنْذُ الطُّفُولَةِ، فَهُوَ تَعَجُّبٌ مَشُوبٌ بِشَيْءٍ مِنَ السُّخْطِ وَالْعُضْبِ وَعَدَمِ الرِّضَا.

أُورِدَ الشَّاعِرُ هُنَا صُورَةً لِلتَّعَجُّبِ وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ:

التَّضَامُنَ وَالْوِفَاقَا !

اللَّهَ ثُمَّ اللَّهَ مَا أَحَلَّى

وَنَظِيرُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

صَبُورًا وَلَكِنْ لَاسَبِيلَ إِلَى الصَّبْرِ^(٥٨)

خَلِيلِي مَا أَحْرَى بِنَدِي اللَّبِّ أَنْ يُرَى

فَهُوَ هُنَا يَجْرِي فِي مَجْرَى الْقِيَاسِ، وَهُوَ قَلِيلٌ عِنْدَهُ.

القَصِيدَةُ الثَّامِنَةُ: وَحْيُ الرِّسَالَةِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

قَبَّلْتَهَا فِي فَمِهَا قُبْلَةً مَا كَانَ أَرْكَاهَا وَأَحْلَاهَا
دُقْتُ بِهَا مِنْكَ أَلْدَ الْهَوَى فَكَيْفَ أَنْسَاكَ وَأَنْسَاهَا^(٥٩)

هَذَانِ الْبَيْتَانِ مِنْ قَصِيدَةٍ غَزَلِيَّةٍ نَظَمَهَا الشَّاعِرُ رَدًّا عَلَى رِسَالَةٍ تَلَقَّاهَا مِنْ فَتَاةٍ كَفَرَتْ كُتَّةً "م.ص"، وَقَدْ أَخْبَرْتُهُ فِي رِسَالَتِهَا أَنَّ أَسْنَانَهَا تُؤَلِّمُهَا، فَطَارَ صَوَابُهُ، وَبَعَثَ إِلَيْهَا تِلْكَ الرِّسَالَةَ؛ لِيُعَبِّرَ عَنْ شَوْقِهِ وَحَيْنِيهِ، وَيَسْرُحَ فِي دُنْيَا الْأَوْهَامِ وَالْخَيَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي ١٩٢٩ م.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فِي قَوْلِهِ: مَا كَانَ أَرْكَاهَا وَأَحْلَاهَا! تَعَجُّبٌ جَاءَ عَلَى الْقِيَاسِ عَلَى وَزْنِ مَا أَفْعَلٌ وَهُوَ هُنَا يُعَبِّرُ عَنْ شِدَّةِ إِعْجَابِهِ بِتِلْكَ الْقُبْلَةِ، وَأَثَرِهَا فِي كَيْانِهِ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْوَجْدُ غَايَتَهُ، فَاعْتَبَرَ أَنَّ حَلَاوَةَ هَذِهِ الْقُبْلَةِ لَمْ يَكُنْ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا مَا هُوَ أَلْدَ وَأَرْكَى.

وَهَذَا شَيْءٌ مُرْتَبِطٌ فِي أُسَاسِهِ بِرَهَافَةِ مَشَاعِرِهِ وَشَفَافِيَةِ أَحَاسِيْسِهِ تَجَاهَ هَذِهِ الْفَتَاةِ الَّتِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ أَقْطَارَ نَفْسِهِ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ الْوَارِدُ فِي قَوْلِهِ: فَكَيْفَ أَنْسَاكَ وَأَنْسَاهَا؟! فَهُوَ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيهِ مِنَ الْاسْتِعْرَابِ وَالِدَهْشَةِ شَيْءٌ مَلْمُوسٌ مِنْ خِلَالِ السِّيَاقِ الرُّوحِيِّ الَّذِي يَسْرِي فِي مَضْمُونِ النَّصِّ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا الْاسْتِفْهَامُ التَّعَجُّبِيُّ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾^(٦٠) وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُوَلَاءٍ شَهِيدًا﴾^(٦١)، وَكَقَوْلِكَ: كَيْفَ أَنْسَى هَذَا الْأَمْرَ؟!

إِنَّهُ تَعَجُّبٌ، يُثِيرُ السَّامِعَ أَوْ يُلْفِتُ نَظْرَهُ إِلَى شَيْءٍ رُبَّمَا يَغْفُلُ عَنْهُ، وَكَأَنَّ الْأَمْرَ جِدُّ خَطِيرٍ، وَهُوَ مَدْعَاةٌ لِلتَّعَجُّبِ.

القصيدَةُ النَّاسِعةُ: اغْفِرِي لِي

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانُ:

أَيْنَ تِلْكَ السَّمَاءُ؟ هَلْ كَانَ ذَلِكَ
اغْفِرِي لِي فَإِنَّ أَشْتَقِي الْمُجِبِينَ
أَيْنَمَا كُنْتُ هَيَّجَ الْقَلْبَ ذَكَرِي
مَا هُنَا؟ إِنَّهَا رُسُومٌ دُمُوعٌ
وَهُنَا؟ طَائِرٌ يُعِيدُ حَدِيثًا
الصَّرْحُ فِيهَا مُسَيِّدًا مِنْ سَحَابٍ؟
مُجِيبٌ حَيَاتُهُ ذِكْرِيَاتُ
صَوَّرْتَهَا أَتَارُنَا الْبَاقِيَاتُ
وَهُنَا؟ آهٍ إِنَّهَا قُبُلَاتُ
لَمْ تَغِبْ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ

هذه القصيدة نظمها الشاعر في ١٩٢٩م في رسالة بعث بها إلى "م.ص"، يثث فيها وجدته وهيامه، ويستعيد فيها ذكرياته الوهمية التي يحيل إليه أنه عاشها مع تلك الفتاة، التي تزوجت فيما بعد من غيره.

وهنا يبدو أن الشاعر فقد عقله، فهو يعبر عن أشياء لم تحدث على أرض الواقع، كما في قصيدته،

وَأَمَّا التَّعْجُبُ فِي قَوْلِهِ: أَيْنَ تِلْكَ السَّمَاءُ؟ إِنَّهُ اسْتَفْهَمَ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ مَا فِيهِ، وَفِيهِ مِنَ الدَّهْشَةِ مَا فِيهِ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ: مَا أَرَوَعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي سَمَوْنَا فِيهَا مُتَجَاوِزِينَ كُلَّ الْمَادِّيَّاتِ لِنُعَانِقَ النُّجُومِ، وَتَكْتَنِفُنَا الْأَزْهَارُ وَالرِّيَّاحِينَ، إِنَّهُ اسْتَفْهَمَ يُثِيرُ أَبْلَغَ غَايَاتِ التَّعْجُبِ مِنْ خِلَالِ الْحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا الشَّاعِرُ هَا هُنَا، وَهَذَا هُنَا يَسْتَمِرُّ فِي عَرْضِ تَسَاوُلَاتِهِ الْاسْتِعْرَابِيَّةِ التَّعْجِيبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ:

مَا هُنَا؟ إِنَّهَا رُسُومٌ دُمُوعٌ
وَهُنَا؟ آهٍ إِنَّهَا قُبُلَاتُ

وَهُنَا؟ طَائِرٌ يُعِيدُ حَدِيثًا، إِنَّهُ شَيْءٌ عَجِيبٌ، رُسُومٌ دُمُوعٌ، وَهُنَا قُبُلَاتٌ، وَهُنَا
طُيُورٌ تُرَدُّ هَمَسَاتِ الْمُحِبِّينَ، إِنَّهَا نَفَثَاتُ هَوْلِ مَا يُحْسُّ، وَيَبْدُو أَنَّ الشَّاعِرَ هُنَا كَانَ
غَائِبًا عَنِ صَوَائِهِ كَمَا يُصْرِّحُ هُوَ نَفْسُهُ فِي بَدَايَةِ الْقَصِيدَةِ دَاتِهَا، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ:
اغْفِرِي لِي إِذَا اتَّهَمْتُكَ بِالْعَدْرِ فَقَدْ كُنْتُ غَائِبًا عَنِ صَوَائِي (٦٣)

إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ التَّسَاؤُلَاتِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَشْحُونَةٌ وَلَا شَكَّ بِأَحَاسِيْسِ الْاسْتِغْرَابِ
وَالْتَّعَجُّبِ، وَهِيَ تَأْخُذُ هَذَا الْبُعْدَ الشُّعُورِيَّ، حِينَ تَرْبِطُهَا بِسِيَاقِهَا الَّذِي تَدُورُ فِيهِ
فَلَكَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَتْ تَسَاؤُلَاتٍ عَادِيَّةً، تَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ.

الأسلوب التَّعَجُّبِي عِنْدَ الشَّاعِرِ فِي قَوْلِهِ: أَيْنَ تِلْكَ السَّمَاءُ؟، كَمَا يَقُولُ النَّحَّاتُ
إِنَّهُ قَدْ يُسْتَفَادُ مِنَ الْاسْتِفْهَامِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ، وَذَلِكَ نَحْوَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا
أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٦٤)، وَهُوَ قَوِيٌّ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبَ يَجْهَلُ سَبَبَ هَذَا
التَّعَجُّبِ " (٦٥).

إِنَّ هُنَاكَ تَعْبِيرَاتٍ غَيْرَ مُنْحَصِرَةٍ تُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَجُّبِ، وَذَلِكَ كَمَا كَانَ يُخْرَجُ
الْاسْتِفْهَامُ إِلَى مَعْنَى التَّعَجُّبِ، كَمَا هُوَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي
شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٦٦)، وَنَحْوَهُ: سُبْحَانَ الْخَالِقِ الْمُبْدِعِ، إِذَا تَعَجَّبْتَ مِنْ
صُورَةٍ جَمِيلَةٍ... وَهِيَ تَعْبِيرَاتٌ غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِكُلِّ مَا يُؤَدِّي مَعْنَى
التَّعَجُّبِ " (٦٧).

القصيدَةُ العاشِرَةُ: خَطْرَةُ فِي الهَوَى

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانَ:

أَعِيدِي إِلَيَّ الْمُضْنَى وَإِنْ بَعْدَ الْمَدَى
تَبَارَكَ هَذَا الْوَجْهُ مَا أَوْضَحَ السَّنَا
فَقَدْتُكَ فَقَدَانَ الصَّبَا وَهَلْ امْرُؤٌ
فَقَدْتُكَ لِكُنِّي فَقَدْتُ ثَلَاثَةً
وَأَبْقَيْتَ لِي غَيْرَ الْقُنُوطِ ثَلَاثَةً
بُلْهَيْتِي الْعَيْشِ الَّذِي كَانَ أَرْغَدَا
وَمَا أَطْيَبَ الْمُفْتَرَّ وَالْمُتَوَرَّدَا
تَوَلَّى صِبَاهُ الْيَوْمَ يُرْجِعُهُ غَدَا
سِوَالِكُ: فُوَادِي، وَالْأَمَانِي وَالْهُدَى
هَوَاكُ، وَسُقْمِي، وَالْحَسِينِ

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ نُظِمَهَا فِي فَنَاتِهِ ١٩٢٩م، حِينَ مَا تَخَرَّجَ مِنَ الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ بِيَرُوتَ، وَكَانَ قَلْبُهُ مَا يَزَالُ مُمْتَلِئًا بِحُبِّ "م.ص"، وَقَدْ سَافَرَ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِلتَّاسِثِشْفَاءِ، وَلِلِقَاءِ أَخِيهِ أَحْمَدَ الَّذِي كَانَ عَائِدًا مِنْ أوكسفُوردَ، وَنُظِمَ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ مِصْرَ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ فَيَتَجَلَّى فِي قَوْلِهِ قَالَ:

"تَبَارَكَ هَذَا الْوَجْهُ... فَقَدْ أَخَذَ جَمَالَ وَجْهَهَا مِنْهُ كُلِّ مَا أَخَذَ، وَعِبَارَةٌ تَبَارَكَ" دَائِمًا تَدُلُّ عَلَى مَدَى الْإِنْبَهَارِ بِالشَّيْءِ وَصَانِعِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦٩)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٧٠)، فَالآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْإِنْبَهَارِ بِجَلَالِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ مَعَ فَارِقِ التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ مُتَأَثِّرٌ بِالْقُرْآنِ كَثِيرًا، وَكَثِيرًا مَا يُورِدُ بَعْضَ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ فِي قَصِيدَةِ "حِطِّينِ" الْمُوَجَّهَةِ لِأَمِيرِ الشُّعْرَاءِ أَحْمَدَ شَوْقِي:
يَا بَاكِي الْفِيحَاءِ حِينَ بَدَتْ
أَيَّامَ كَانَتْ وَرْدَةً
بَدَمِ الْبَوَاسِلِ كَالدَّهَانِ
تُقِيمَ عَلَى الْهَوَانَ^(٧١)

فَقَوْلُهُ: "كَالِدَّهَانَ" مَاخُودَةٌ بِنَصِّهَا وَرُوحُهَا مِنْ سَوْرَةِ الرَّحْمَنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَبِأَيِّ
ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣١) فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالِدِّهَانِ ﴿٧٢﴾.

فَالشَّاعِرُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ إِذَا مُنْبَهَرٌ بِدَلِكِ الْحُسْنِ، حَيْثُ عَبَّرَ عَنِ تَعَجُّبِهِ بِقَوْلِهِ "تَبَارَكَ هَذَا الْوَجْهَ"، ثُمَّ أَتْبَعَ هَذَا الْإِنْبَهَارَ بِأَسْلُوبِ تَعَجُّبٍ آخَرَ جَاءَ عَلَى الْقِيَّاسِ، وَدَلِكِ فِي قَوْلِهِ: مَا أَوْضَحَ السَّنَا وَمَا أَطْيَبَ الْمُفْتَرَّ وَالْمُتَوَرِّدَا، وَدَلِكِ عَلَى صِيغَةٍ مَا أَفْعَلُ... مُكَرَّرَةٌ؛ لِتَدُلَّ عَلَى مَدَى اسْتِعْرَاقِهِ الْوَجْدَانِي فِي اللَّوْحَةِ الْأَخَادَةِ أَمَامَهُ، وَجْهٌ مُنِيرٌ "كَسْنَا الشَّمْسِ، وَفَمَّ طَيِّبٌ، وَخُدُودٌ مُتَوَرِّدَةٌ"، إِنَّ هَذَا التَّعَجُّبَ بِأَسْلُوبِهِ الْقِيَّاسِيَّ يُوحِي بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ مِنْ حَالَةِ هَيْامٍ وَصَبَابَةٍ؛ لِيُضْفِيَ عَلَى صَاحِبَتِهِ كُلِّ آيَاتِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ:

فَقَدْتُكَ فُقْدَانَ الصَّبَا وَهَلِ امْرُؤٌ تَوَلَّى صَبَاهُ الْيَوْمَ يُرْجِعُهُ غَدَا
فَقَدْتُكَ لَكِنِّي فَقَدْتُ ثَلَاثَةً سِوَاكَ: فُوَادِي، وَالْأَمَانِيَّ وَالْهُدَى

فَأَيُّ أَثَرٍ لِهَذَا الْحُبِّ الَّذِي يَفْقِدُهُ صَاحِبَتُهُ، يَكُونُ فُقْدَانُ كُلِّ شَيْءٍ الصَّبَا وَالشَّبَابِ بِمَا فِيهِمَا مِنْ لَذَّةِ الْحَيَاةِ... إِنَّ هَذَا الشَّيْءَ عَجِيبٌ، وَفِي قَوْلِهِ: فَقَدْتُ ثَلَاثَةً سِوَاكَ: فُوَادِي، وَالْأَمَانِيَّ وَالْهُدَى، فَيَكُونُ بِدَلِكِ قَدْ وَصَلَ الشَّاعِرُ إِلَى الْمَرْتَبَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ مَرَاتِبِ الْحُبِّ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْهَيْامِ، حِينَ يَهِيمُ الْمُحِبُّ عَلَى وَجْهِهِ فِي الْبَرَارِي وَالْقِفَارِ، كَمَا يَقُولُ وَيُنَاجِي نُجُومَ اللَّيْلِ، وَالطُّبَّاءَ، وَالْجَاذِرَ (٧٣)، كَمَا يَقُولُ قَيْسُ بْنُ الْمُلُوحِ فِي صَاحِبَتِهِ لَيْلَى:

وَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا، وَحَيْدُكِ حَيْدُهَا وَلَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكَ رَقِيقٌ (٧٤)

إِنَّ التَّعَجُّبَ - هُنَا - جَاءَ عَلَى اعْتِبَارِ السَّمْعِ الَّذِي يَقِفُ أَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ الْعَرَامِيِّ مُنْبَهَرًا مُتَعَجِّبًا، وَإِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَرْتَبَةِ الْجُنُونِ الَّتِي

وَصَلَ إِلَيْهَا مَجَانِينُ الْعَرَبِ فِي التَّرَاثِ الشُّعْرِيِّ، كَقَيْسِ لَيْلَى، وَقَيْسِ لُبْنَى، وَجَمِيلِ بُيُوتَةٍ، وَعُرْوَةَ الْعَفْرَاءِ، وَكُثَيْرِ عَزَّةَ، وَلَا كَيْلِكَ الْمُرْتَبَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا "مِي زِيَادَةَ" فِي شَعْفِهَا وَحُبِّهَا لِجُبْرَانَ خَلِيلِ جُبْرَانَ، حَيْثُ إِنَّهَا فَقَدَتْ عَقْلَهَا، وَهَامَتْ فِي شَوَارِعِ بَيْرُوتَ فِي حَالَةٍ جُنُونٍ، وَفُقْدَانٍ لِلْوَعْيِ.

لَقَدْ هَامَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ ب. م. ص.، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ مُتَمَاسِكًا الْفِكْرِ، مُتَوَازِنًا الْخَطَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ لَجَأَ هَذَا الْحُبُّ تَمَثُّلًا فِي صِحَّتِهِ، حَيْثُ دَمَّرَهَا تَدْمِيرًا.

لقد لجأ إبراهيم طوقان إلى التّعجب القياسي في قوله:

تَبَارَكَ هَذَا الْوَجْهُ مَا أَوْضَحَ السَّنَا وَمَا أَطْيَبَ الْمَفْتَرَّ وَالْمُتَّوَرِّدَا

القصيدة الحادية عشرة: البلد الكئيب

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

أَتَضِيْعُ يَا وَطَنِي وَهَذَا
فَلأَذْهَبَنَّ فِدَاءَ قَوْمِي
بُشْرَاكَ يَا وَطَنِي فَقَدْ
حَيَّتْ جُمُوعَ الْعَائِنَاتِ
وَطَنِي، ظَفِرَتْ إِذَا النَّسَاءُ
عَرِقُ الْعُرُوبَةِ فِي نَابِضٍ؟!
فِي غِمَارِ الْمَوْتِ خَائِضٌ
نَهَضَتْ بِكَ الْغَيْدُ الْأَوَانِسُ
عِيُونَ نَرْجِسُكَ النَّوَاعِسُ
هَتَفْنَ بِاسْمِكَ فِي الْمَجَالِسِ^(٧٥)

أُلْقِيَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ ١٩٢٩ م بِمُنَاسَبَةِ الْإِضْرَابِ الَّذِي عَمَّ فِلَسْطِينَ يَوْمَ وَعَدِ بَلْفُورِ، وَهُوَ فِيهَا يَتَحَسَّرُ عَلَى وَطَنِهِ، وَيَبْكِي عَلَى مَا أَصَابَهُ جَرَاءُ وَعَدِ بَلْفُورِ، وَمَا تَرْتَبَ عَلَيْهِ مِنْ فَتْحِ أَبْوَابِ الْهَجْرَةِ لِلْيَهُودِ، وَهُوَ يُعْرَضُ بِهَذَا الْوَعْدِ، وَيَتَوَعَّدُ صَانِعِيهِ، وَيَحْضُ الشُّبَابَ عَلَى الْجِهَادِ.

وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ، فَنَمَثِلُ فِي الْأَسْتِغْرَابِ، وَدَلِكَ فِي قَوْلِهِ: أَنْضِيعُ يَا وَطَنِي، وَهُوَ تَعَجُّبٌ قَائِمٌ عَلَى إِحْسَاسِ الشَّاعِرِ تَجَاهَ وَطَنِهِ، فَضِياعُ الْوَطَنِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ أَمْرٌ يَدْعُو لِلْعَجَبِ وَالتَّعَجُّبِ، وَهُوَ لَا يُقَرُّ بِدَلِكَ مَا دَامَ فِيهِ عِرْقٌ يَنْضِضُ، وَرُبَّمَا وَرَدَ هَذَا التَّعَجُّبُ الْمَحْسُوسُ لَدَيْهِ مِنْ زَاوِيَةِ التَّعْرِيزِ بِالْمُتَقَاعِسِينَ مِنْ أَبْنَاءِ وَطَنِهِ، وَهَذَا التَّعْرِيزُ تَمَثُّلٌ بِشَكْلِ سَافِرٍ حِينَ أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى الْعَائِيَاتِ، وَهَذَا شَيْءٌ عَجَابٌ، فَقَدْ عَقَمَتِ الْأُمَّةُ أَنْ تُنَجِّبَ رِجَالًا؛ لِتَحْلُو السَّاحَةَ النُّضَالِيَّةَ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ، يَقُولُ مُتَهَكِّمًا، أَوْجَادًا:

بُشْرَاكَ يَا وَطَنِي فَقَدْ نَهَضْتَ بِكَ الْغَيْدُ الْأَوَانِسَ

وَهَذَا مَدْعَاةٌ لِلتَّعَجُّبِ - أَيْضًا - فِي السِّيَاقِ ذَاتِهِ، فَقَدْ حَوَّلَ الْمَقَامَ كُلَّهُ إِلَى الْإِنْبَهَارِ بِدَوْرِ الْغَيْدِ وَجُمُوعِهِنَّ اللَّوَاتِي حِينِ يُعْيُونَ التَّرْجِسَ، وَكَأَنَّهُ فِي تَجْرِبَةٍ غَزَلِيَّةٍ، فَالْمَرْأَةُ عِنْدَهُ هِيَ الْمُحَرِّكُ الرَّئِيسُ لِمَعِينِ الشَّعْرِ عِنْدَهُ، وَالْمُفَجِّرُ الْأَوَّلُ لِلطَّاقَةِ الشَّعْرِيَّةِ.. إِنَّ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا هُوَ مَدْعَاةٌ لِلتَّعَجُّبِ، وَأَنْظُرْ إِلَى صُورَةِ التَّعَجُّبِ الْأُخْرَى فِي قَوْلِهِ:

وَطَنِي، ظَفِرْتَ إِذَا النِّسَاءُ هَتَفْنَ بِاسْمِكَ فِي الْمَجَالِسِ

فَأَيُّ ظَفِرٍ هَذَا الَّذِي سَيَحَقِّقُهُ الْوَطَنُ الْمَضِيعُ إِذَا هَتَفَتِ النِّسَاءُ بِاسْمِهِ فِي الْمَجَالِسِ؟! وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ﴾^(٧٦)... وَهَكَذَا لَا يَكْفُ الشَّاعِرُ عَنْ إِبْدَاءِ تَعَجُّبِهِ الْمُتَشَبِّحِ بِالْحَسْرَةِ وَالتَّأْوُهُ وَالتَّفَكُّهِ، جَرَاءَ عَمَايَةِ بَنِي وَطَنِهِ عَنْ ضِيَاعِ الْبِلَادِ، وَهُمْ فِي خِلَافَاتٍ وَجَاهِيَّةٍ وَحَزِينَةٍ.

هَذَا هُوَ أُسْلُوبُ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ فِي إِيرَادِ أُسَالِيْبِهِ التَّعَجُّبِيَّةِ، مُعْتَمِدًا عَلَى التُّكْنَةِ الْبَالِغَةِ، وَاللَّمْحَةِ اللَّادِعَةِ.

القصيدة الثانية عشرة: الفدائي

يقول إبراهيم طوقان:

لَا تَسْأَلْ عَنِ سَلَامَتِهِ رُوْحُهُ فَوْقَ رَاحَتِهِ
بَدَّلْتَهُ هُمُومُهُ كَفْنَا مِنْ وَسَادَتِهِ
مَنْ رَأَى فَحْمَةَ الدُّجَى أَضْرَمَتْ مِنْ شَرَارَتِهِ
هُوَ بِالْبَابِ وَقِفٌ وَالرَّدَى مِنْهُ خَائِفٌ
صَامِتٌ لَوْ تَكَلَّمَا لَفَظَ النَّارَ وَالِدَمَا^(٧٧)

هذه القصيدة نظمها في فدائي شجاع ١٩٣٠م، يوم كمن ذلك الفدائي في مدخل دار الحكومة المتدبّة في القدس، وأطلق النار على النائب العام اليهودي البريطاني، الذي أمعن في النكايّة والكيد للعرب بالقوانين التعسفيّة الجائرة التي كان يطبخها "ليبيع الناس أرضهم لليهود".

إنّ الشاعر في هذه القصيدة معجبٌ غاية الإعجاب من ذلك الفدائي الشجاع، يتضح هذا من قوله: مَنْ رَأَى فَحْمَةَ الدُّجَى؟ إِنَّهُ اسْتَفْهَمَ تَعْجِبِيٌّ عَلَى عَادَتِهِ يُفْشِي بِالْإِكْبَارِ وَالْإِجْلَالِ لِذَلِكَ الْفَتَى الْمَعْوَارِ، الَّذِي مَزَقَ سُكُونَ اللَّيْلِ بِرِصَاصَةِ أَضَاءَتِ الظُّلُمَاتِ، صَوَّبَهَا لِذَلِكَ الْعَدُوِّ، إِنَّهُ مَوْقِفٌ تَعْجِبِيٌّ يَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ مِنْ خِلَالِ إِحْسَاسِهِ بِعِظَمَةِ إِقْدَامِ ذَلِكَ الْفِدَائِيِّ عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ الَّذِي دَفَعَ حَيَاتَهُ تَمَنَّا لَهُ.

ثمّ ها هو يرسم صورةً لحركة البطل في تعبيرٍ تعجبيٍّ آخر، وذلك في قوله:

هُوَ بِالْبَابِ وَقِفٌ وَالرَّدَى مِنْهُ خَائِفٌ !!

فَأَيُّ رَجُلٍ هَذَا الَّذِي يَحْشَاهُ الرَّدَى، وَكَأَنَّ الْأَمْرَ انْعَكَسَ، فَعَدَا الطَّالِبُ مَطْلُوبًا؛
إِنَّهُ لَأَمْرٌ عَجِيبٌ، وَإِنَّهُ لِمَا يَدْعُو إِلَى التَّعَجُّبِ، الصَّمْتُ الْمُعْجِزُ لِذَلِكَ الْفَتَى، يَتَّضِحُ
هَذَا مِنْ قَوْلِهِ:

صَامِتٌ لَوْ تَكَلَّمَا لَفَظَ النَّارَ وَالِدَمَا

لِأَنَّ كَلَامَهُ يَعْنِي قُوَّةَ النَّبِرَانِ وَالِدَمَاءِ الْمَسْفُوحَةِ مِنَ الْعَدُوِّ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ طَوْقَانَ
يَرَى الْأُمُورَ بِمِرَاةٍ قَدْ يَعْقِلُ عَنْهَا الْكَثِيرُونَ، إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ مِثْلُ إِحْسَاسِهِ وَرُؤْيَيْتِهِ...
وَهَذَا أَمْرٌ يَدْعُو إِلَى التَّعَجُّبِ أَيْضًا...

حَقًّا إِنَّ أُسْلُوبَ التَّعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طَوْقَانَ جَاءَ ذَا مَنْحَى مُعَايِرٍ لِمَا أَلْفَهُ أَهْلُ
النَّحْوِ، وَهُوَ مَنْحَى الشُّعْرَاءِ الرُّومَانِيِّينَ^(٧٨)، الَّذِينَ تَهَزَّهُمْ لَفْتَةٌ طَرْفٍ، أَوْ بُعَامٌ ظَبْيٍ^(٧٩)،
أَوْ مَيْسَةٌ غَانِيَةٌ^(٨٠)، أَوْ لَمْحَةٌ بَطُولَةٍ.

وَاضِحٌ إِنَّ أُسْلُوبَ التَّعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طَوْقَانَ نَحَا مَنْحَى مُعَايِرًا لِلْوُضُوفَةِ
النَّحْوِيَّةِ فِي نَحْوِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْعَلَامَةِ الْإِعْرَابِيَّةِ، إِذْ إِنَّ الْعَلَامَةَ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ
لِلْمُسْتَمِعِ أَوْ الْقَارِئِ نَوْعَ الْوُضُوفَةِ النَّحْوِيَّةِ، وَلِذَا فَإِنَّ احْتِمَالَ صِحَّةِ أَكْثَرِ مِنْ عَلَامَةٍ
عَلَى الْكَلِمَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ اسْتِحْسَانِ عَلَامَةٍ دُونَ أُخْرَى وَفَقَ الدَّلَالَةِ الْمَقْصُودَةِ
خُصُوصًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، يُعَدُّ لَوْثًا مِنْ أَلْوَانِ عَدَمِ تَبَاتِ الْوُضُوفِ النَّحْوِيَّةِ
لِلْمُفْرَدَاتِ دَاخِلِ التَّرَاكِيِبِ، يُضَافُ إِلَى اللَّوْنِ الْأَصْلِيِّ لِتَبَادُلِ الْوُضُوفِ النَّحْوِيَّةِ بَيْنَ
الْأَلْفَافِ^(٨١)، وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ السَّامِرَائِيُّ^(٨٢).

القصيدة الثالثة عشرة: مُنَاجَاةُ وَرْدَةَ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانَ:

جَنَى عَلَيْكَ الْحُسْنَ يَا وَرْدَتِي
رَوْضَتُكَ الْعَنَاءُ يَا وَرْدَتِي
لِلَّهِ مَا أَصْدَقَهَا حِكْمَةً
تَشْتَاقُ أَيَّارَ نُفُوسِ الْوَرَى
تَعَزِيَةٌ أَوْدَعَ فِيهَا الضَّرِيرُ
كَلَاءً؛ بَلِ النَّفْسُ الَّتِي تَضْعَفُ
وَطِيبُ رِيَاكِ فَذُقْتَ الْعَدَابَ
قَدْ أَتَبَّتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بِهِجٍ
فَأَهَّ بِهَا الْمَجْهُولُ فِي عَهْدِهِ
وَإِنَّمَا الشَّقُوقُ إِلَيَّ وَرْدِهِ
حُكْمَ الْبَصِيرِ
تَصْطَنَعُ الْبَأْسَ فَلَا تُعْرِفُ^(٨٣)

استوحى الشاعر هذه القصيدة من ذكرى حبه لـ "م.ص" إذ إن حبه لها جلب إليها الأ نظار، فلم تلبث أن فاز بها أحد المعجبين، وتأثر في موضوعها بما لقيه أخوه أحمد عند توظيفه مدرّساً في القدس، فقد كان إبراهيم يشعر أن تفوق أخيه هو الذي جعله ينال دون حقه، ولولا هذا التفوق لنال معاملة أحسن؛ لأن الرجل العادي لا يحشى رؤساؤه جانبه، أما التعجب عند الشاعر في هذه المناجاة، فقد دار في دائرتين:

الأولى: دائرة اللمحة السريعة التي تعتمد على النكتة الشعرية، انطلاقاً من مفهومه للشعر، وأنه نكتة والثاني: على القياس، فنراه يقول في القياس: لله ما أصدقها حكمة، حيث جاء التعجب هنا على صيغة ما أفعَل! مبدئياً تعجبه من حكمة المعري الذي أوردته في السياق ذاته حينما قال:

تَشْتَاقُ أَيَّارَ نُفُوسِ الْوَرَى
وَإِنَّمَا الشَّقُوقُ إِلَيَّ وَرْدِهِ

وهذه الحكمة التي أثارت تعجب إبراهيم طوقان لها مَسَاسٌ بِرُوحِهِ الشَّاعِرَةِ، وَحُبِّهِ لِرُؤُودِ أَيَّارَ لَا لِأَيَّارِ دَاتِهِ، وَيَبْدُو لِي أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ تَعَلَّقَ بِفَتَاةٍ "كفر كنه" في هذا

الشَّهْرُ مِنْ شُهُورِ السَّنَةِ، وَهُوَ الشَّهْرُ الَّذِي تَتَفَتَّحُ فِيهِ الْأَزْهَارُ، وَيَعْتَشِقُ فِيهِ الْعَاشِقُونَ،
فَالْتَعَجُّبُ - هُنَا - مُرْتَبِطٌ بِهَوَى النَّفْسِ أَشَدَّ الْأَرْتِبَاطِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، ثُمَّ نَجِدُهُ يُورِدُ
صُورَةً تَعَجُّبِيَّةً أُخْرَى عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

كَأَنَّ بَلِ النَّفْسِ الَّتِي تَضَعُفُ تَصْطَنِعُ الْبَاسَ فَلَا تُعْرِفُ^(٨٤)

وَهُنَا يُشِيرُ إِلَى شَيْءٍ مُعْجِزٍ فِي الْحَيَاةِ أَثَارَ دَهْشَتِهِ وَإِعْجَابِهِ، وَهُوَ أَنَّ سِرَّ قُوَّةِ
الكَائِنِ يَكْمُنُ فِي ضَعْفِهِ، كَذَلِكَ حَيَاةُ الْبَشَرِ وَالْحَيَوَانَاتِ، فَالمرأةُ سِرُّ قُوَّتِهَا فِي ضَعْفِهَا،
فِيضَعُفِهَا تَغْزُو قَلْبَ الرَّجُلِ وَتُهَيِّمُنُ عَلَيْهِ، وَالْعُصْفُورُ الصَّغِيرُ يَبْطِشُ بِالْأَفْعَى،
وَالْبَعُوضَةُ تُدْمِي مُقْلَةَ الْأَسَدِ.

يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَا تُحَقِّرَنَّ صَغِيرًا فِي مُحَاصِمَةٍ إِنَّ الْبَعُوضَةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الْأَسَدِ

فَهُوَ يَرَى بِنَظَرَتِهِ الثَّاقِبَةِ وَحِسَّهُ الشَّاعِرِ أَنَّ النَّفْسَ الضَّعِيفَةَ قَدْ تَصْطَنِعُ مَا لَا
يَصْطَنِعُهُ غَيْرُهَا.

عَلَى آيَةٍ حَالٍ فَالْتَعَجُّبُ عِنْدَهُ يَتَرَاوَحُ بَيْنَ الْقِيَاسِ وَالسَّمَاعِ، وَمَا يُسْتَنْجَجُ مِنَ
السِّيَاقِ، وَهُنَا تُتَعَدَّدُ الْوِطَائِفُ النَّحْوِيَّةُ لِلْمُكَوَّنِ الْوَاحِدِ الدَّالِّ عَلَى الْمَعْنَى الْجَدِيدِ
الْمُرْتَبِطِ بِالْحَالَةِ الْوُجْدَانِيَّةِ لِلْمُتَكَلِّمِ، وَمِنْ هُنَا تَبَّهَ النُّحَاةُ وَاللُّعُويُونَ بِعَامَّةٍ إِلَى خُطُورَةِ
هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَوَضَعُوا لَهَا أُسُسًا وَسَمَاتٍ يَتَّسِمُ بِهَا كُلُّ مُكَوَّنٍ حِينَ يُؤَدِّي وَظِيفَةَ نَحْوِيَّةً
مُعَيَّنَةً فِي تَرْكِيبٍ مُعَيَّنٍ^(٨٦)، وَهَذَا يَنْضِحُ فِي خُرُوجِ التَّرْكِيبِ مِنْ دِلَالَتِهِ النَّحْوِيَّةِ
التَّرْكِيبِيَّةِ إِلَى دِلَالَةِ مَعْنَوِيَّةٍ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِمَعَانِي النَّحْوِ.

القصيدة الرابعة عشرة: الثلاثاء الحمراء

يقول إبراهيم طوقان:

يوم أطل على العُصُور الخالية
ويْلُ له ما أظلمَا لَكِنَّمَا
لَمْ أَلْقَ مِثْلَكَ طَالِعاً فِي رَوْعَةٍ
الْكُلُّ يَرْجُو أَنْ يُبَكِّرَ عَفْوُهُ
ضَاقَ الْبَرِيدُ وَمَا تَغَيَّرَ حَالُ
وَدَعَا: أَمْرٌ عَلَى الْوَرَى أَمْثَالِيَّةٌ؟
حَمَلَ الْبَرِيدَ مُفْصِلاً مَا أُجْمَلَا
فَادْهَبْ لَعَلَّكَ أَنْتَ يَوْمَ الْمَحْشَرِ
نَدْعُو لَهُ أَلَّا يُكَدِّرَ صَفْوُهُ
وَالذُّلُّ بَيْنَ سَطُورِنَا أَشْكَالُ^(٨٧)

حاول اليهود في صيف ١٩٢٩م الخروج على التقاليد الثابتة المتعلقة بصلاتهم في موقع البراق، فهاج العرب؛ لأنهم فطنوا إلى ما يضمن اليهود من وراء هذه المحاولة من اعتداء على الأماكن المقدسة، وشببت في القدس والخليل ويافا وصفد اضطرابات دامية بين اليهود والعرب، قتل فيها من اليهود عدد كبير في مدينتي الخليل وصفد، ثم ألقى السلطات البريطانية القبض على بعض الشبان، وانهمتهم بقتل اليهود وحوكموها، وصدرت أحكام الإعدام على الشهداء الثلاثة: فؤاد حجازي من صفد، ومحمد جمجوم، وعطا الزير من الخليل رحمهم الله جميعاً.

أما اللّمحات التعجبية في القصيدة فنراها في قوله: وَيْلُ لَهُ مَا أَظْلَمَا لَكِنَّمَا
حيث جاء التعجب على سبيل القياس: مَا أَفْعَلْ، وَهُوَ هُنَا يَأْخُذُ بَعْدًا نَفْسِيًّا غَائِرًا فِي
نَفْسِ الشَّاعِرِ لِمَا ارْتَكَبَهُ الْمُحْتَلُّ الْبَرِيطَانِيُّ الْيَهُودِيُّ مِنْ ظُلْمٍ وَتَعَسُفٍ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ
الْحَمْرَاءِ يَحَقُّ الْأَبْطَالَ الشُّهَدَاءِ الثَّلَاثَةَ.

ثم يورد أسلوباً تعجبياً في السياق نفسه، يعبر فيه عن مدى سُخْطِهِ عَلَى مَا
حَلَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْأَسْوَدِ، يَتَضَحُّ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ حِينَئِذَا قَالَ: "فَادْهَبْ لَعَلَّكَ أَنْتَ يَوْمٌ

المَحْشَرُ "إِنَّهُ تَعَجَّبُ مِنْ لَوْنِ خَاصٍّ، لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا مَنْ عَاشَرَ الْمَشْهَدَ، وَاکْتَوَى بِنَارِ الظَّلَمِ، فَتَرَى النَّاسَ يَوْمَئِذٍ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ فِي حَالَةٍ هَلَعٍ وَفَزَعٍ، يَمْوِجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَمُصَدِّقًا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٨٨).

إِنَّ الشَّاعِرَ مُتَأَثِّرٌ - بِلَا شَكٍّ - بِالتَّصْوِيرِ الفَنِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبِأَيَاتِ التَّدْبِيرِ وَالاِبْتِهَارِ أَمَامَ مَا يَجْرِي فِي الْكَوْنِ مِنْ تَدْبِيرٍ يَجْعَلُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ، حِينَ تُطَبَّقُ شَرِيعَةُ الْعَابُ فِي دُنْيَا الْبَشَرِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: حَمَلَ الْبَرِيدُ مُفْصَلًا مَا أَجْمَلًا، فَالتَّعَجُّبُ هُنَا جَاءَ عَلَى الْقِيَّاسِ عَلَى وَزْنِ مَا أَفْعَلُ ! وَإِذَا مَا رَبَطْنَا التَّعَجُّبَ بِيَوْمِ الثَّلَاثَاءِ الدَّامِي، وَرَدَدَةَ الْفِعْلِ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ، وَجَدْنَاهُ تَعَجُّبًا غَرِيبًا، إِنَّهُ تَعَجَّبُ قَائِمٌ عَلَى الْأَمَلِ، وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ حَدَثَ فِعْلًا، مِمَّا يُثِيرُ أَحَاسِيْسَ الْاِبْتِهَارِ بِالْجَمَالِ، يُفَسِّرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ حِينَمَا انْشَدَ قَبْلَ ذَلِكَ قَائِلًا:

الْكُلُّ يَرْجُو أَنْ يُبَكِّرَ عَفْوُهُ نَدْعُو لَهُ أَلَّا يُكَدَّرَ صَفْوُهُ.. !

أَيُّ عَفْوِ الْمُنْدُوبِ السَّامِيِّ الْبَرِيطَانِيِّ الْيَهُودِيِّ فِي فِلَسْطِينَ، وَقَدْ أَلْحَتْ عَلَيْهِ اِهْتِيَاتُ السِّيَاسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِيُصْدَرَ الْعَفْوُ، فَلَمْ يَفْعَلْ قَاتِلُهُ اللَّهُ، إِنَّهُ تَعَجَّبُ يَرْتَكِزُ عَلَى الْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ، مَا أَجْمَلُهُ لَوْ حَدَثَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحْدُثْ، إِنَّهُ تَعَجَّبُ يَشِيرُ إِلَى تَعْزِيَةِ النَّفْسِ الْمَشْوُوقَةِ إِلَى انْقِادِ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ الثَّلَاثَةِ.

وَهُنَا نَحْدُ الشَّاعِرَ يَسِيرُ عَلَى الْمَنْهَجِ نَفْسَهُ، وَهُوَ مَنْهَجُ الْأُسْلُوبِ التَّعَجُّبِيِّ غَيْرِ الْمُبَوَّبِ، الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ التُّحَاةُ، وَلَوْ حَاوَلْنَا أَنْ نُحَلِّلَ التَّرْكِيبَ تَحْلِيلًا تَحْوِيًّا إِعْرَاقِيًّا، لَفَقَدَ سِمَةَ التَّعَجُّبِ الْمُرْتَكِزَةِ فِي أَحَاسِيْسِ الشُّعْرَاءِ (٨٩).

القصيدة الخامسة عشرة: طيف الأمل

يقول إبراهيم طوقان:

لِلَّهِ مَا أَعْجَبَهُ هَوَى بقلبي نُزْلاً
هَوَى عَلَى عِلَاتِهِ أُنْبِي عَلَيْهِ أَمْلاً
هَوَى لِمَنْ لَمْ أَرَهَا يَذْهَبُ عَنِّي مَثَلَا
قِيلَ انْتَهَى الحُسْنُ لَهَا قُلْتُ: لَهَا وَاكْتَمَلَا
قِيلَ اسْمُهَا مَحَاسِنُ جَلَّ مِنْ اسْمٍ وَعَلَا^(٩٠)

نظم الشاعر هذه القصيدة في "م.ص" صاحبته في ٢٠ شباط ١٩٣١م، فهي تعيش في وجدانه ولا تُفارق خياله، إنه مجرد طيف لها، مرّ بخاطرِهِ، فأنجذب إليه بحرارة الشوق والتوله.

أما التّعجبُ فيبرزُ هنا في قوله: لِلَّهِ مَا أَعْجَبَهُ! ولفظُ الجلالة في البداية، يُنبئُ بعناية الإعجابِ والدهشة، كأن يقول القائل: لِلَّهِ دُرٌّكَ فَارِسًا! أو كأن يقول: يَا لِلَّهِ!!! لتعظيم الموقف في سياقٍ تعجبي عظيم.

حيث جاء قوله مَا أَعْجَبَهُ عَلَى القياسِ عَلَى وَزْنِ "مَا أَفْعَل" وهذا الوزن قليل في شعر إبراهيم طوقان، إذا ما قورنَ بِأَسَالِيبِ التّعجبِ الَّتِي أوردَهَا فِي مُعْظَمِ قصائدهِ عَلَى غيرِ القياسِ، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ أَرْوَعًا، وَأَبْدَعًا وَأَنْفَذَ إِلَى الوجدانِ؛ حيث رَبَطْنَاهَا بِالمشاهدِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَأَحَاسِيسِ الشَّاعِرِ تِجَاهَهَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَمِثَالُ ذَلِكَ قوله مُبْهَرًا:

قِيلَ انْتَهَى الحُسْنُ لَهَا قُلْتُ: لَهَا.. وَاكْتَمَلَا

فَهُوَ أَمَامَ حُسْنِهَا يَقِفُ مَشْدُوهَا إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يُعْتَبَرُ فِيهِ هَذَا الْحُسْنُ قِمَّةُ
الِاكْتِمَالِ، وَهَنَا مُبَالَغَةٌ شَدِيدَةٌ؛ لِأَنَّ الْكَمَالَ لِلَّهِ وَحَدَّهُ.

ففي قول الشاعر مُتَعَجِّبًا فِي قَوْلِهِ:

لِلَّهِ مَا أَعْجَبَهُ هَوَى بِقَلْبِي نَزَلَا

حَيْثُ مَزَجَ الشَّاعِرُ بَيْنَ التَّعَجُّبِ السَّمَاعِيِّ كَمَا فِي قَوْلِهِ: اللَّهُ دَرُهُ فَارِسًا، كَمَا
يَقُولُونَ، وَالْقِيَاسُ مَا أَفْعَلُهُ، أَي: مَا أَعْجَبُهُ، وَهَذَا أَمْرَانِ مُبَوَّبَانِ، وَلَكِنَّ الْكَثِيرَ عِنْدَ
الشَّاعِرِ مِنْ بَابِ مَا لَيْسَ مُبَوَّبًا، وَفِيهِ نَحْسٌ رُوحَ التَّعَجُّبِ دُونَ رُكُونِ إِلَى التَّرَاكِيِبِ
النَّحْوِيَّةِ الْإِعْرَابِيَّةِ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَجَالِ صَيْغٌ كَثِيرَةٌ، كَالِاسْتِفْهَامِ وَنَظِيرُهُ ذَلِكَ مَا جَاءَ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا»^(٩١)، وَكَمَا جَاءَ فِي قَوْلِ رَسُولِ
اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجِسُ"^(٩٢)، وَمِثْلُهُ مَا وَرَدَ فِي
بَابِ نَعْمٍ وَيُسَّ كَصَيْغَةِ "فَعَلٌ بِالضَّمِّ كَ شَرُفٌ وَ ظَرْفٌ"^(٩٣).

الْقَصِيدَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: غَاذَةُ إِشْبِيلِيَّةٌ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

أَوَّلُ عَهْدِي بِفُتُونِ الْهَوَى بَيْرُوتُ أَنْعَمَ بِالْهَوَى الْأَوَّلِ
بَيْرُوتُ لَوْ شِئْتُ دَفَعْتُ النَّوَى طَوْعًا وَلَمْ أَهْجُرْكَ فَالْوَيْلُ لِي
لِي رَقْدَةٌ طَوِيلَةٌ فِي غَدِ لِلَّهِ مَا أَعَمَّقَهَا فِي الثَّرَى
أَفْدِي بِرُوحِي غِيْدَ أَشْبِيلِيَّةِ وَإِنْ أَدْقَنَ الْقَلْبُ صَابَ

أَنشَدَ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ سَنَةَ ١٩٣٢ م فِي رَاقِصَةٍ أَسْبَانِيَّةٍ تُدْعَى "مَرْغَرِيْتَا"، وَكَانَ عُنْوَانُ الْقَصِيدَةِ فِي الْأَصْلِ "حَسْرَةٌ وَأَمَلٌ"، وَكَانَ عُمُرُهُ يَوْمَئِذٍ سَبْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَبَعْدَ تِسْعِ سَنَاتٍ أَدْرَكَتْهُ مَيِّتُهُ ١٩٤١ م.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ جَاءَ هُنَا عَلَى الْقِيَّاسِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: أَنْعِمَ بِالْهُوَى الْأَوَّلِ،
وَذَلِكَ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلٍ بـ، وَكَذَلِكَ جَاءَ عَلَى الْقِيَّاسِ - أَيْضًا - فِي قَوْلِهِ: مَا أَعَمَّقَهَا
فِي الثَّرَى

وَهُوَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِبِرُوتٍ، وَإِعْجَابِهِ بِالْأَيَّامِ الْخَوَالِي، وَهَذَا شَيْءٌ
مَلْمُوسٌ فِي سُنَّةِ الشُّعْرَاءِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَأَمْرٌ الْقَيْسِ - قَدِيمًا - قَالَ:
أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ وَلَا سَيِّمًا يَوْمٍ بِدَارَةٍ جُلْجَلٍ^(٩٥)
وَقَالَ غَيْرُهُ:

نَقُلُ فُوَادَكَ حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْهُوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَيِّبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَعِشْقُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ^(٩٦)

وَهُنَا يَلْقَانَا إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ بِهِذِهِ الْأَحَاسِيْسِ الْمُتَفَجِّرَةِ فِي حَيْنِهِ إِلَى بِرُوتٍ،
الَّتِي شَهَدَتْ أَوَّلَ عَهْدِهِ بِالْحُبِّ لِفَتَاتِهِ النَّاصِرِيَّةِ "م. ص" فِي الْجَامِعَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ
بِبِرُوتٍ، وَأَمَّا التَّعَجُّبُ فِي قَوْلِهِ: مَا أَعَمَّقَهَا فِي الثَّرَى، فَقَدْ جَاءَ عَلَى وَزْنِ مَا أَفْعَلُ،
وَهُنَا تَعَجُّبٌ نُسْتَمُّ مِنْهُ رَائِحَةَ الْقُنُوطِ، وَالِاسْتِسْلَامِ لِقَضَاءِ اللَّهِ، فَهُوَ يَحْسُ كَأَنَّهُ لَنْ
يُعْمَرَ طَوِيلًا فِي الْحَيَاةِ، بِاسْتِشْعَارِهِ الرَّقْدَةَ الْأَبَدِيَّةَ فِي بَاطِنِ الثَّرَى، يَتَّضِحُ هَذَا مِنْ
قَوْلِهِ:

لِي رَقْدَةٌ طَوِيلَةٌ فِي غَدٍ لِّلَّهِ مَا أَعَمَّقَهَا فِي الثَّرَى

وَهُنَا يَكْبَحُ جِمَاحَ هَوَاهُ، وَيُصْرِّحُ بِأَنَّ أَفْرَاسَ شَبَابِهِ قَدْ اقْتَرَبَ مَدَاهَا، وَهَذَا
شَيْءٌ قَلَّمَا نَجِدُهُ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ الشَّبَابِ، إِلَّا إِذَا كَانُوا يَسْتَشْرِفُونَ قُرْبَ أَجْلِهِمْ، كَمَا هُوَ
الشَّأْنُ عِنْدَ طَرْفَةِ بَنِ الْعَبْدِ قَدِيمًا، حَيْثَمَا قَالَ:

فَإِنْ كُنْتُ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَيِّتِي فَدَعْنِي أَبَادِرَهَا بِمَا مَلَكَتْ

كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْبِقَ الْمَنِيَّةَ قَبْلَ أَنْ تَجِلَّ بِسَاحَتِهِ، وَأَبُو الْقَاسِمِ الشَّابِيُّ فِي تُوسِ
حَدِيثًا، وَبَدْرُ شَاكِرِ السِّيَابِ فِي الْعِرَاقِ، وَهَاشِمُ الرَّفَاعِيِّ فِي مِصْرَ، حِينَمَا قَالَ فِي
قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ:

أَبْتَاهُ مَاذَا يَحُطُّ بَنَانِي وَالْحَبْلُ وَالْجَلَّادُ يَنْتَظِرَانِي ^(٩٨)
فَالشَّاعِرُ قَدْ أَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَكُلُّهُمْ قَضَوْا شَبَابًا فِي الثَّلَاثِينَاتِ أَوْ دُونِهَا،
وَقَدْ أَحَسَّ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ بِأَنَّهُ لَنْ يُعَمَّرَ طَوِيلًا.

وَلَعَلَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ التَّعَجُّبِيَّةِ "غَيْرِ الْمُبَوَّبَةِ تَدْخُلُ فِي بَابِ التَّحْوِيلِ إِذَا
صِيغَتْ "فَعْلٌ" بَدَلُ "أَفْعَلٍ" مِثْلُ: عَدَلَ خَالِدٌ، وَظَرَفَ سَعِيدٌ، أَيُّ: مَا أَظْرَفُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ
الْأَصْلَ فِي "فَعْلٍ" يَدُلُّ عَلَى الطَّبَائِعِ وَالسَّجَايَا كَ "فَبِحَ، وَحَسُنَّ، وَقَدْ يَتَّحَوَّنُ الْفِعْلُ إِلَى
هَذِهِ الصِّيغَةِ لِأَغْرَاضٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَشَارَ إِلَيْهَا السَّامِرَائِيُّ ^(٩٩).

القَصِيدَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ: عَاشَ كِلَانًا بِالْمُنَى

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

حُكْمٌ بِهِ الْحُبُّ قَضَى	مَا أَظْلَمَ الْقَاضِي
حَسْبُكَ أَنْ تَرْضَى بِهِ	فَلِإِنِّي رَاضِي
دَعَاكَ مِنَ الْمَاضِي فَلَو	عُدْتَ إِلَيَّ الْمَاضِي
وَجَدْتَ وَصَلَ سَاعَةً	وَدَهَرَ إِعْرَاضِي
عَاشَ كِلَانًا بِالْمُنَى	نُرْسِلُهَا شِشْرًا
تِلْكَ رُفَاتٌ بَلِيَّتْ	تَبْعُهَا الذِّكْرَى ^(١٠٠)

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ نَظَمَهَا سَنَةَ ١٩٣٢ م، وَقَدْ وَجَّهَهَا إِلَى الشَّاعِرِ عَبْدِ الْكَرِيمِ
الكَرْمِيِّ "أَبُو سَلْمَى" صَدِيقِهِ، وَيَبْدُو مِنْ خِلَالِ التَّمَعُّنِ فِي مُفْرَدَاتِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، أَنَّ

أَبَا سَلَمَى قَدْ عَانَى مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ مِنْ تَبَارِيحِ الْهَوَى دُونَ طَائِلٍ، وَهَكَذَا كُلُّ
الشُّعْرَاءِ يَفْشُلُونَ فِي حُبِّهِمْ لِسِرِّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، مَعَ أَنَّ النَّسَاءَ بَطَّبَعِهِنَّ يَهْمَنُ
بالشُّعْرَاءِ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ فِي الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ فَقَدْ جَاءَ عَلَى الْقِيَاسِ فِي قَوْلِهِ: مَا أَظْلَمَ
القَاضِي عَلَى صَيِّغَةٍ مَا أَفْعَلَ، وَالشَّاعِرُ هُنَا لِرَفِيقِهِ وَرَهَافَةَ حِسِّهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ يُشْعِرُنَا
بِأَنَّ أَنْفَاسَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، أَيْ حَالَةِ إِصْدَارِ الْقَاضِي الْحُكْمَ عَلَى الْحُبِّ، هُوَ إِصْدَارٌ
خَفِيفٌ رَهِيْفٌ، وَكَأَنَّهُ قَالَهَا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، لِأَنَّهُ يَعْنِي بِالْحُبِّ صَاحِبَتَهُ فَتَاءٌ "كَفَرُ كُنْه"
الَّتِي لَوْعَتُهُ، فَهُوَ مَا زَالَ يَعِيشُ عَلَى أَمَلِ الْوِصَالِ، وَلَعَلَّ فِي الْبُعْدِ تَأْجِيحًا لِنَارِ
الشُّوقِ، كَمَا يَقُولُ جَمِيلٌ بُيُوتَهُ:

يَمُوتُ الْهَوَى مِثْلِي إِذَا مَا لَقَيْتُهَا وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتُهَا وَيَعُودُ^(١٠١)

فَهُوَ ظَلَمٌ مُحَبَّبٌ إِلَى النَّفْسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، أَمَّا التَّعَجُّبُ الَّذِي أَصْدَرَهُ يَحَقُّ
الْمُنْدُوبِ السَّامِيَّ الْبَرِيْطَانِيَّ حِينَ أَصْدَرَ حُكْمَهُ بِإِعْدَامِ الْأَبْطَالِ الْثَلَاثَةِ الَّذِينَ وَرَدَ
ذِكْرُهُمْ سَابِقًا فِي قَصِيدَةِ: الثَّلَاثَاءِ الْحَمْرَاءِ، فَهُوَ تَعَجُّبٌ مَشْحُونٌ بِالْعَيْظِ وَالسُّخْطِ
وَالرَّغْبَةِ فِي الْإِنْتِقَامِ.

القَصِيدَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ: نِسْرُ الْمُلُوكِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانَ:

مَنْ رَأَى "نِسْرَ الْمُلُوكِ" الْمُرْتَجَى
وَسَوَاءً فِي الْأَعَاصِرِ مَضُوا
كَجُنُودِ اللَّهِ طَارَتْ خَيْلُهُمْ
يَا لَعَيْنِ سَهَرَتْ عَنْ فَيْصَلِ
طَارَ مِنْ عُقْبَانِهِ فِي جَحْفَلِ
أَمْ مَضُوا فِي نَفْحَاتِ الشَّمَالِ
يَوْمَ بَدْرٍ فِي سَمَاءِ الْقَسْطَلِ
تَحْرُسُ الْمَلِكُ لَهُ مَا تَأْتَلِي

رَأَتْ الْعَذْرَ فَادَاهَا، فَهَلْ تَحْمِلُ الضَّيْمَ وَلَمَّا تَغْفَلِ
نَظَمَ الشَّاعِرُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي رِثَاءِ الْمَلِكِ فَيَصِلُ الْأَوَّلِ مَلِكِ الْعِرَاقِ، وَقَدْ
أُلْقِيَتْ فِي حَفْلَةِ الْأَرْبَعِينَ الَّتِي أُقِيمَتْ فِي مَدِينَةِ نَابُلُسَ.

أَمَّا التَّعَجُّبُ هُنَا فَقَدْ وَرَدَ فِي صِيغَةِ يَا لَلْهُولِ!، يَا لِعَظَمَةِ! وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:
يَا لَعَيْنِ سَهَرَتْ عَنِّي فَيَصِلُ، إِنَّهُ تَعَجُّبٌ بِأَسْلُوبِ نِدَاءٍ مُكَوَّنٍ مِنْ حَرْفِ النِّدَاءِ الْيَاءِ
وَالجَّارِ وَالْمَجْرُورِ بَعْدَهُ، وَنَحْنُ نَحْسُ فِيهِ شِدَّةَ تَأَثُّرِ الشَّاعِرِ بِهَوْلِ الْمَوْقِفِ، وَعَظَمِ
الْمُصَابِ، لِأَسِيْمَا وَأَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ مُعْجَبًا بِالْهَاشِمِيِّينَ إِعْجَابًا كَبِيرًا لَا يُحَدُّ، يَتَّضِحُ هَذَا
مِنْ قَوْلِهِ:

مَنْ هَذَا لِلْمَثَلِ الْأَعْلَى يَجِدُ فِي بَنِي هَاشِمٍ أَعْلَى مَثَلِ
أَيْكُمْ يَا آلَ بَيْتِ الْمُصْطَفَى مَا قَضَى مُسْتَشْهِدًا مُنْدُ "عَلِيٍّ
فَتَحَ الْخُلْدُ لَكُمْ هَيْكَلَهُ فَإِذَا أَنْتُمْ بُدُورُ الْهَيْكَلِ
ضَمَّ جِبْرِيلُ جَنَاحِيهِ عَلَيَّ سُودِدٌ مَحْضٍ وَبُلِّ أَمَثَلِ
وَأَطَافُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِمَنْ عَزَمُهُ فِي الْحَقِّ عَزْمُ الرُّسُلِ
فَيَصِلُ شَيْدٌ مُلْكًا لَمْ يَزَلْ بِحِمَى اللَّهِ وَغَازِي يَعْتَلِي (١٠٣)

فَالشَّاعِرُ مِنْ أَنْصَارِ الثُّورَةِ الْعَرَبِيَّةِ ضِدَّ الْأَثْرَاكِ، وَمِنْ مُؤَيِّدِيهَا بِالْقَوْلِ، إِنَّ تَعَجُّبَهُ
بِالْمَوْقِفِ، وَشِدَّةَ تَأَلُّمِهِ يَشِيرُ إِلَى أَنَّ الْفِرَاعَ الَّذِي أَحَدَتْهُ غِيَابُ الْفَقِيدِ لَنْ يَمْلَأَهُ أَحَدٌ،
وَلَكِنَّ الْأَمَلَ يَبْقَى فِي ابْنِهِ غَازِيِ الْأَوَّلِ، وَكَذَلِكَ التَّعَجُّبُ فِي قَوْلِهِ:

مَنْ رَأَى "سُرَّ الْمُلُوكِ" الْمُرْتَجَى طَارَ مِنْ عُقْبَانِهِ فِي جَحْفَلِ

إِنَّهُ اسْتَفْهَمَ تَعَجُّبِي يُصَبُّ فِيهِ كُلُّ أَحَاسِيْسِ الْإِنْبِهَارِ بِهَذَا السُّرِّ الْعَرَبِيِّ، الَّذِي
تَحَرَّكَ بِفِرْسَانِهِ ضِدَّ الْمُحْتَلِّينَ، وَأَهْلِ الْفِتَنِ.

الاستفهام التعجبي المسبوق بأداة النداء يا بارز في النص الشعري، وهذا تعجب غير مبوب كما يقول النحاة، وهو كثير قد يشمل أبواباً كثيرة من أساليب العرب، أما التعجب المبوب فهو محكوم بصيغتين وهما ما أفعل، وأفعل به^(١٠٤).

والتعجب بالنداء يكون بإدخال لام جر مفتوحة على المتعجب منه مسبوقة بحرف النداء "يا نحو: يا للماء"، و"يا للهول"، وقد تحذف اللام فيؤتى بالفعل في آخر المتعجب منه فيقال: يا عجباً^(١٠٥)، وقالوا: يا للعجب، ويا للماء، لما رأوا عجباً أو رأوا ماء كثيراً، وكانهم قالوا: تعال يا عجب، أو تعال يا ماء، فإنه من أيامك وزمانك^(١٠٦).

القصيدَة النَّاسِعةُ عَشْرَة: مَصْرَعُ بَلْبُل

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَان:

دَاك لَيْلُ قَضَى عَلَى الْبَلْبُلِ الْمُنْكَودِ لَوْلَا يَدُ تَصَدَّتْ عَلَيْهِ
مَمْلَكَةُ عَرْشِهَا الْمَشَارِقُ وَالْتَّاجُ سَنَاها، أَعْظَمُ بِهَا شَرْقِيَّةَ
أَنْقَذْتُهُ فَهَبْ يَشْدُو شُكُورًا مَرِحًا، هَاتِفًا لَهَا بِالتَّحِيَّةِ:
كُلُّ قَلْبٍ لَهُ هَوَاهُ.. وَلَكِنْ لَيْسَ يَدْرِي مَتَى يَجِيءُ زَمَانُهُ
وَهُوَ إِمَّا فِي ظِلِّ جَفْنٍ كَحَيْلٍ كَامِنِ السَّحْرِ، رَاقِدٍ أُنْعَوَانُهُ^(١٠٧)

هذه القصيدة نظمها الشاعر سنة ١٩٣٢م، واستوحاها من إحدى رقصات الرافضة الأسبانية مرغريتا متأثراً بقصيدة: "الببلُّ والوردة" لأوسكار وايلد.

أما التعجب هنا فقد جاء في قوله: أعظم بها شرفية!! حيث جاء التعجب على القياس، وذلك على وزن "أفعل ب"، والتعجب هنا لا يفهم إلا إذا فهم الرمز في هذه القصيدة، حيث إن الببلُّ رمز للشباب المخدوع، الذي بهرته حياة المدن وزخرفها

التَّعَجُّبُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوفَانَ...

وَأَنْجِلَالُهَا، وَأَمَّا الْوَرْدَةُ فَهِيَ رَمْزٌ لِبَائِعَةِ الْلَهُوِّ وَالْهَوَى وَالْعَبَثِ، وَأَمَّا الرَّوْضُ فَهُوَ رَمْزٌ لِلْحَانَةِ أَوْ الْمَلْهَى، وَهِيَ أُمُورٌ عَاشَهَا الشَّاعِرُ فِي بَيْرُوتَ، حَيْثُ إِنَّهُ حَضَرَ الرَّقْصَ الْأَسْبَانِيَّ، وَأَنْعَمَسَ فِي حَيَاةِ الْمَدِينَةِ، وَأَحَبَّ فِتَاةَ "كُفْر كُتَّة" لَكِنْ فَارَ بِهَا سِوَاهُ، فَهُوَ هُنَا يَنْدُبُ حَظَّهُ، وَإِنْ يَعَجَبُ فَعَجَبٌ مِّنَ الْحَيَاةِ الشَّرْقِيَّةِ ذَاتِ الْقِيَمِ الرَّفِيعَةِ، وَهِيَ الَّتِي مَدَّتْ لَهُ يَدَيْهَا، لِتُنْقِذَهُ مِنْ وَهْدَةِ الضَّبَّاحِ كَمَا اتَّضَحَ هَذَا مِنَ النَّصِّ السَّابِقِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: أَعْظَمُ بِهَا شَرْفِيهِ فَإِنَّهُ التَّعَجُّبُ الَّذِي يَنْبَعُثُ مِنْ قِيَمِهِ وَأَخْلَاقِهِ الشَّرْقِيَّةِ، وَأَنْعَمَ بِهَا مِنْ قِيَمِ.

الْقَصِيدَةُ الْعِشْرُونَ: زِيَادَةُ الطَّيْنِ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طُوفَانَ:

مَنْ كَانَ يُنْكِرُ نُوحًا أَوْ سَفِينَتَهُ
حَلَّ الْوَبَالَ "بَعِيْبَالَ" فَمَالَ بِهِ
فِي جَارِفِ كَعَجِجِ الْبَحْرِ طَاغِيَةٍ
وَلَا تَزَالُ مِنَ الزَّلْزَالِ بَاقِيَةً
فَإِنَّ نُوحًا بِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ عَادَا !!
يَا هَيْبَةَ اللَّهِ إِبْرَاقًا وَإِرْعَادَا !!
أَمْوَاجُهُ تَحْمِلُ الْأَسْوَاقَ امِدَادَا
تَذَكَرُهَا يُوقِدُ الْأَكْبَادَ إِيقَادَا^(١٠٨)

نَظَّمَ الشَّاعِرُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ بِمُنَاسَبَةِ الطُّوفَانِ الَّذِي طَعَى عَلَى مَدِينَةِ نَابُلُسَ وَضَوَّاحِيهَا سَنَةَ ١٩٣٥ م، أَمَّا التَّعَجُّبُ فَقَدْ وَرَدَ هُنَا عَلَى السَّمَاعِ، فَمَثَلًا فِي الْبَيْتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ دَلَالَةٌ عَلَى هَوْلِ الْمَوْقِفِ الَّذِي أَثَارَ دَهْشَةَ الشَّاعِرِ وَإِعْجَابَهُ مِنَ الطُّوفَانِ الَّذِي حَلَّ بِمَدِينَةِ نَابُلُسَ، وَكَانَهُ طُوفَانُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ مُرْتَبِطٌ بِالْحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي سَيَّطَرَتْ عَلَى الشَّاعِرِ سَيْطَرَةً كَامِلَةً، بِاعْتِبَارِهِ أَحَدَ الْمُنْكَوِّينَ، فَتَابِلَسَ مَدِينَتُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: يَا هَيْبَةَ اللَّهِ إِبْرَاقًا وَإِرْعَادًا! فَهُوَ تَعَجُّبٌ اعْتَمَدَ فِيهِ الشَّاعِرُ عَلَى النَّدَاءِ الَّذِي يَلْجَأُ فِيهِ إِلَى الْإِسْتِعَاثَةِ يَا لِلَّهِ، حَيْثُ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ الْمَصَابِ، وَهِيَ

عِبَارَةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِحَالَةِ الْفَرْعِ الَّذِي اسْتَبَدَّ بِالشَّاعِرِ جِرَاءَ الْمَصَابِ الْمَدْمِرِ، وَأَحْيَانًا تَرُدُّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ التَّعْجِيبِيَّةَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْإِعْجَابِ بِشَيْءٍ قَدْ يَكُونُ جَمِيلًا، وَقَدْ يَكُونُ قَبِيحًا لِلسَّخْرِيَّةِ وَالتَّهْكُمِ، فَالْأَمْرُ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْمَشْهَدِ الْمُثِيرِ أَوَّلًا وَأَخِيرًا.

القَصِيدَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: رثاءُ الشَّيْخِ سَعِيدِ الْكَرْمِيِّ

يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ طَوْقَانُ:

أَيُّهَا الْمَوْتُ، أَيُّ مَجْلِسِ أَنْسٍ
مَا أَشَدَّ افْتِقَارَنَا لِسُمُو الْخُلُقِ
مَا لَكُمْ بَعْضُكُمْ يَمَزُقُ بَعْضًا
وَوَقَارَ عَطَّلَتْ بَعْدَ سَعِيدِ
فِي هَذِهِ اللَّيَالِي السُّودِ
أَفَرَعْتُمْ مِنَ الْعَدُوِّ اللَّدُودِ؟^(١٠٩)

نَظَمَ الشَّاعِرُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ سَعِيدِ الْكَرْمِيِّ قَاضِي قَضَاةِ إِمَارَةِ شَرْقِ الْأُرْدُنِ، وَمَنْ رُعَمَاءِ فِلَسْطِينَ، وَمَنْ أَدْبَائِهَا الْمَعْرُوفِينَ نَظَمَهَا سَنَةَ ١٩٣٥ م.

الشَّاعِرُ مُنْبَهَرٌ وَمَشْدُودٌ بِمَوْتِ ذَلِكَ الْعَلَمِ الْكَبِيرِ، فَهُوَ يُخَاطِبُ الْمَوْتَ مُسْتَعْرِبًا؛ ثُمَّ يَتَسَاءَلُ تَسَاؤُلًا عَجِيبًا تَعْجِيبًا: أَيُّ مَجْلِسِ أَنْسٍ؟ فَالْأَمْرُ لَدَيْهِ فَاقَ حُدُودَ التَّعَقُّلِ، فَالتَّعَجُّبُ هُنَا يَأْخُذُ بَعْدًا إِنْسَانِيًّا تَرَاجِيدِيًّا، وَلَعَلَّ ذَلِكَ جَاءَهُ مِنْ نَافِذَةِ تَقَافَتِهِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ.

ثُمَّ يَأْتِي بِتَعَجُّبٍ قِيَاسِيٍّ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: مَا أَشَدَّ افْتِقَارَنَا! عَلَى وَزْنِ "مَا أَفْعَلُ" وَهُوَ تَعَجُّبٌ بِالْفِعْلِ الْخُمَاسِيِّ "افْتَقَرَ" فَجَاءَ بِفِعْلِ مُسَاعِدِ ثَلَاثِيٍّ هُوَ أَشَدُّ الْمَأْخُودِ مِنَ الْفِعْلِ شَدَدًا، وَآتَى بِالمَصْدَرِ مِنَ الْفِعْلِ الْخُمَاسِيِّ "افْتِقَارَنَا"، إِنَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ سُوءِ الْحَالِ بَعْدَ الشَّيْخِ الْكَرْمِيِّ، وَالفَرَاغِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي تَرَكَهُ فِي الْبِلَادِ.

ثُمَّ يُعَزِّزُ ذَلِكَ بِتَعَجُّبٍ آخَرَ وَرَدَ فِي صَيْغَةِ اسْتِفْهَامٍ تَعَجُّبِي يَمَسُّ التَّشَرُّدَ
الْفِلَسْطِينِيَّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَانْقِسَامَ زَعَامَاتِ الْأُمَّةِ الزَّائِفَ - وَكَأَنِّي بِهِ يَسْتَشْرِفُ
الْعَدَا، أَي: مَا أَلَّتْ إِلَيْهِ الْأُمُورُ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ - الَّتِي ضَيَّعَتْ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ، يَتَضَحُّ هَذَا
مِنْ قَوْلِهِ: "مَا لَكُمْ بَعْضُكُمْ يُمَزِّقُ بَعْضًا" إِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِي يَأْخُذُ بَعْدًا نَفْسِيًّا مَشْحُونًا
بِالْحَسْرَةِ وَالْأَسَى، وَهُوَ هُنَا كَمَا أَشْرْنَا أَنْفَاءً يَسْتَشْرِفُ الْمَصَابَ الْوَطَنِيَّ قَبْلَ وَقُوعِهِ،
وَطَالَمَا حَدَّرَ مِنْ ذَلِكَ فِي فَصَائِدِهِ الْوَطَنِيَّةِ الْحَمَاسِيَّةِ، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى، لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ
غَالِبٌ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَكَانَ أَنْ "سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ" ^(١١٠) كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ،
وَاحْسَرَتَاهُ!

لَقَدْ أَوْرَدَ الشَّاعِرُ أُسْلُوبًا تَعَجُّبِيًّا ذَا لَوْنٍ مُخْتَلِفٍ، وَهُوَ التَّعَجُّبُ بِأَيِّ الْكَمَالِيَّةِ
أَيُّ مَجْلِسِ أَنْسٍ، وَذَلِكَ نَحْو: "مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَيِّ رَجُلٍ"، فَاتَى بِـ أَيٍّ لِلدُّالَّةِ عَلَى
وَصْفِ الشَّيْءِ بِالْكَمَالِ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حَالِهِ، وَأَيُّ الْكَمَالِيَّةِ لَهَا
تُضَافُ إِلَّا إِلَى نَكْرَةٍ، وَتَقَعُ وَصْفًا لِنَكْرَةٍ، وَحَالًا مِنْ مِعْرِفَةٍ ^(١١١).

نتائج البحث:

جدول توضيحي إحصائي يوضح صيغ التعجب القياسية والسماعية التي تضمنتها القصائد التي عالجتها في هذا البحث:

السماع		القياس	
غير المشهور، ولكنه ورد في كلام العرب والقرآن	المشهور	أفعل به	ما أفعل
١٩ تسع عشرة مرة	لله دره! يا للهول يا لعين سهرت! كيف هذا؟ ١٧ سبع عشرة مرة	٣ ثلاث مرات	١٦ ست عشرة مرة

- إن نظرة متأنية في الجدول السابق تُرينا أن الشاعر إبراهيم طوقان استطاع أن يعبر عن ظاهرة التعجب في كافة المواضيع التي طرقتها في قصائده.
- لاحظنا من خلال استعراضنا لديوان إبراهيم طوقان أن ظاهرة التعجب النحوية عنده دارت في أكثر من دائرة: الدائرة الأولى: هي دائرة تعتمد على القياس الصرفي المعروف وهي: ما أفعل، وأفعل به.
- والدائرة الثانية: تعتمد على السماع من قول العرب، وأشهرها: لله دره، ويا الندائية وما بعدها من جار ومجرور مثل قوله في قصيدة "سُر الملوكة": يا لعين سهرت، ومثل قوله في قصيدة "ذكرى دمشق" يا للهول الوغي، وهذا من الشواهد المعروفة لدى النحاة.
- والدائرة الثالثة وهي الأكثر؛ حيث إن هناك أساليب تعجبية كثيرة تضمنتها قصائده، وقد يكون انفرد بها دون سواه من الشعراء، وقد بناها على أساس الاستفهام، مثلاً: كيف كما في قصيدته: يا سراة البلاد "كيف يلقي من هادميهِ بُناةً، وقصيدة

"وَحْيُ الرِّسَالَةِ": فَكَيْفَ أُنْسَاكَ وَأَنْسَاهَا؟ وَكَذَلِكَ حَرَفُ الهمزة فِي نَفْسِ القَصِيدَةِ: أَفَزَعْتُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، وَفِي قَصِيدَةِ "الْبَلْدُ الكَيْبُ" أَنْضِيعُ يَا وَطَنِي، وَأَيْنَ كَمَا جَاءَ فِي قَصِيدَةِ: "تَحِيَّةُ الرِّيْحَانِي" "أَيْنَ بَاتَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ الأَيَّةُ؟"، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي حِينِهِ، وَالنِّدَاءِ، وَأَسَالِيبِ خَبْرِيَةِ يَسْتَشْفِ مِنْهَا التَّعَجُّبُ، وَوَرَدَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِمَّا أَشْرْنَا إِلَيْهِ، وَمِمَّا وَقَفَ عِنْدَهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ النُّحُو قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

• هُنَاكَ صَيْغٌ وَأَسَالِيبٌ تَعَجُّبِيَّةٌ اسْتَشْفَفْنَاهَا مِنْ الأَسَالِيبِ الخَبْرِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي ثَنَائِهَا بَعْضَ قَصَائِدِهِ، وَكَانَ المَعْوَلُ الأَكْبَرُ عَلَيْهَا فِي إِدَارَةِ شُئُونِ هَذَا البَحْثِ المَوْسُومِ بِالتَّعَجُّبِ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ.

• إِنَّ مَسْأَلَةَ التَّعَجُّبِ هِيَ مَسْأَلَةٌ نِسْبِيَّةٌ تَعْتَمِدُ فِي أُسَاسِهَا عَلَى قُوَّةِ إِحْسَاسِ السَّامِعِ، وَالمُتَمَحِّةِ الذِّكْرِيَّةِ مِنَ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ، وَهَذَا جَانِبٌ لِمَسْأَلَتِهِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ، حَيْثُ إِنَّهُ جَاءَ عَلَى غَيْرِ المَأْلُوفِ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى المُلَمَّحَةِ السَّرِيعَةِ، وَالتَّنَكُّتِ العَابِرَةِ، يُصْرِّحُ بِهَا أَحْيَانًا، وَيَسْتَتِرُ أَحْيَانًا أُخَرَ.

• إِنَّ أَسَالِيبَ التَّعَجُّبِ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ فِي نِهَآيَةِ الأَمْرِ تَنْحُو مَنْحَى مُعَايِرًا لِمَا أَلْفَهُ أَهْلُ النُّحُو وَالصَّرْفِ، وَهُوَ مَنْحَى الشُّعْرَاءِ الرُّومَانِيِّينَ الَّذِينَ تَهْزُهُمْ لَفْتَةُ طَرْفٍ، أَوْ بُعَامَ ظَنِّي، أَوْ مَيْسَةَ غَايِبَةٍ، أَوْ لَمَحَّةَ بَطُولَةٍ.

إِنَّ قَضِيَّةَ الحُبِّ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ يَلْتَقِي فِيهَا مَعَ شَقِيْقَتِهِ فَذَوَى، فَكِلَاهُمَا يَبْحَثُ عَنِ الحُبِّ الضَّائِعِ، وَلَكِنْ حُبُّهُمَا كَانَ الوَطْنَ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَمِنْ هُنَا وَجَدْنَا فِي بَحْثِنَا لَنَا سَابِقِ مَوْسُومِ بـ "ظَاهِرَةَ الاِشْتِقَاقِ فِي شِعْرِ فَذَوَى طُوقَانَ" دِرَاسَةً تَحْلِيلِيَّةً عِنْدَهَا أَسَالِيبٌ نَحْوِيَّةٌ كَثِيرَةٌ تُصَلِّحُ لِلدِّرَاسَةِ؛ وَلَآكُنَّهَا عَمَّرَتْ طَوِيلًا، أَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَقَدْ مَزَجَ بَيْنَ الوَطَنِ وَالحُبِّ الحَقِيقِيِّ، وَلَكِنْ حُبُّهُ الحَقِيقِيِّ كَادَ أَنْ يَطْعَى عَلَى حُبِّهِ لَوَطْنِهِ، حَتَّى أَوْدَى ذَلِكَ الحُبُّ الضَّائِعِ بِحَيَاتِهِ فِي وَقْتٍ مُبَكَّرٍ.

الهوامش والتعليقات:

- (١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٧
- (٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٤٥.
- (٣) لسان العرب (عجب) ١ / ٥٨١.
- (٤) تهذيب اللغة ١ / ٢٤٧.
- (٥) سورة البقرة آية ٢٨.
- (٦) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، ١ / ٧٣.
- (٧) سورة الصافات آية ١٢.
- (٨) سورة الكهف آية ٦٣.
- (٩) سورة آل عمران آية ٣٧.
- (١٠) الأعمال الشعرية الكاملة، إبراهيم طوقان، ص ٤٩ - ٥٠.
- (١١) الصافات آية ١٢.
- (١٢) التيسير في القراءات السبع ص ١٥١
- (١٣) اتحاف فضلاء البشر ج ٢ ص ٤٠٨ - ص ٤٠٩
- (١٤) البقرة آية ١٥.
- (١٥) معاني القرآن للفراء، ج ٢ ص ٣٨٤.
- (١٦) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٥ ص ٧٤.
- (١٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٥٧.
- (١٨) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٠٩.
- (١٩) حاشية الصبان على شرح الأشموني ج ٣، ص ٢٤.
- (٢٠) البقرة آية ٢٨.

- (٢١) ديوان رؤبة بن العجاج ص ١٦٨ .
- (٢٢) معاني النحو ج ٤، ص ٢٣٩ .
- (٢٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٨١-٨٢ .
- (٢٤) ديوان امرئ القيس، ص ٤٣ .
- (٢٥) حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل ج ٢، ص ٨٩ .
- (٢٦) البقرة آية ١٧٥ .
- (٢٧) الدر المصون ج ١، ص ٤٤٥ .
- (٢٨) الجامع لأحكام القرآن ج ٢، ص ٢٤٠-٢٤١ .
- (٢٩) سري: أي رجل كبير الشأن وكأنه يقول: إن فلسطين خلت من الحكماء في زمانه، أي: كلهم تجار وسماسرة للوكالة اليهودية.
- (٣٠) لباب الآداب ص ١١٢ .
- (٣١) سورة هود آية ٨٧ .
- (٣٢) أمالي ابن الشجري ج ٢، ص ٥٥٣ .
- (٣٣) عبس آية ١٧ .
- (٣٤) تفسير البحر المحيط ج ٨، ص ٤٢٠ .
- (٣٥) معاني القرآن وإعرابه ج ٥، ص ٢٨٥ .
- (٣٦) أمالي ابن الشجري ج ٢، ص ٥٥٣ .
- (٣٧) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٥٧ .
- (٣٨) البقرة آية ١٨ .
- (٣٩) الأعمال الشعرية الكاملة ص ٩٠ .
- (٤٠) ديوان مجنون ليلي ص ١٣٠ .

- (٤١) شرح الرضي على الكافية ج ٤ ص ٢٣٠، وانظر شرح الاشموني على ألفية ابن مالك ج ٢ ص ٢١.
- * سراة البلاد هم حكماء الناس الذين افتقدتهم الوطن في زمانه.
- (٤٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٥٨.
- (٤٣) البيان والتبيين ج ١، ص ٩٧.
- (٤٤) البصائر والذخائر ج ١، ص ٧.
- (٤٥) آل عمران آية ١٠٦
- (٤٦) البقرة آية ٢٨.
- (٤٧) الفوائد الضيائية ج ٢ ص ٢٠٦، وانظر حاشية الصبان ج ٣ ص ٢٣.
- (٤٨) حاشية الصبان ج ٣ ص ٢٣.
- (٤٩) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ج ٢ ص ٢٠.
- (٥٠) ديوان الأعشى ص ٧٥.
- (٥١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٦٩-٧٠.
- (٥٢) الكتاب ج ٢ ص ٩٥، وانظر مغني اللبيب ص ١٤٥.
- (٥٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٧٢-٧٣.
- (٥٤) كيف هنا بمعنى تشبه، وكأنه يقول حالي كيف حالك، أي: مثلك تماماً، أي: بمعنى الحال من بعضه، كما تقول العامّة.
- (٥٥) المدخل إلى دراسة النحو العربي في ضوء اللغات السامية ص ٦١-٦٢.
- (٥٦) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٩٠-٩١.
- (٥٧) انظر اللغة العربية مبنائها ومعناها، ص ٣٤٢_٣٧١.
- (٥٨) شرح الأشموني ج ٢، ص ٢٧.

- (٥٩) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٠٣.
- (٦٠) سورة الفرقان آية ٧.
- (٦١) سورة النساء آية ٤١.
- (٦٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٠٨ - ١٠٩.
- (٦٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٠٨.
- (٦٤) الإنفطار آية ١٧.
- (٦٥) الفوائد الضيائية ج ٢، ص ٣١٠.
- (٦٦) هود آية ٧٢.
- (٦٧) معاني النحو ج ٤ ص ٢٥٣.
- (٦٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١١١.
- (٦٩) سورة الملك آية ١.
- (٧٠) سورة المؤمنون آية ١٤.
- (٧١) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٩٥.
- (٧٢) سورة الرحمن آية ٣٦-٣٧.
- (٧٣) الجآذر: هو ابن البقرة الوحشية المشهورة بجمال عينيها.
- (٧٤) اللباب في الجمع بين السنة والكتاب ص ٦٣٥.
- (٧٥) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١١٩ - ١٢٠.
- (٧٦) ص آية ٥.
- (٧٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٣٦ - ١٣٧.
- (٧٨) مثل عمرو بن أبي ربيعة، ونزار قباني، وتشيلي وجون دون وسواهم.
- (٧٩) بغام ظبي هو صوت ابن الغزال.

- (٨٠) ميسة غانية: المشي بانكسار وتمايل مثل عارضات الأزياء.
- (٨١) العربية والوظائف النحوية ص ٢٧٨.
- (٨٢) انظر معاني النحوج ٤ ص ٢٤٨-٢٥٣.
- (٨٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٣٨-١٣٩.
- (٨٤) الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٣٩.
- (٨٥) حياة الحيوان الكبرى ج ١، ص ١٨٥.
- (٨٦) العربية والوظائف النحوية ص ٢١٥.
- (٨٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٤٠-١٤١.
- (٨٨) سورة الحج آية ٢.
- (٨٩) انظر معاني النحوج ٤، ص ٢٣٩.
- (٩٠) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٥٨.
- (٩١) البقرة آية ٢٨.
- (٩٢) صحيح مسلم، باب الدليل على أن المسلم لا ينجس حديث رقم ٣٧١ ج ١ / ص ٢٨٢
- (٩٣) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ج ٢، ص ٨٩، وانظر معان النحوج ٤، ص ٢٤٥-٢٤٥.
- (٩٤) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٦٥-١٦٦.
- (٩٥) ديوان امرئ القيس، ص ٢٨.
- (٩٦) غاية الأمان في الرد على النبهاني ج ١ ص ٥٦٢.
- (٩٧) ديوان طرفة بن العبد، ص ٣٢.
- (٩٨) ديوان الأعمال الكاملة لـ هاشم الرفاعي ص ١٧٣.
- (٩٩) معاني النحوج ٤ ص ٢٤٥.
- (١٠٠) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٧٢-١٧٣.

التَّعَجُّبُ فِي شِعْرِ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ...

- (١٠١) ديوان جميل بثينة، ص ١٧.
- (١٠٢) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٩٠.
- (١٠٣) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ١٩٠ - ١٩١.
- (١٠٤) معاني النحو ج ٤، ص ٢٣٨.
- (١٠٥) شرح ابن يعيش ج ١، ص ١٣١.
- (١٠٦) الكتاب ج ٣، ص ١٢٨.
- (١٠٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢٠٤ - ٢٠٦.
- (١٠٨) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢١٤.
- (١٠٩) الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.
- (١١٠) مجمع الأمثال ٢ / ٩٧ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٢ ص ١٢٤.
- (١١١) معاني النحو ج ٤، ص ٢٥١.

ثبت المصادر والمراجع:

- ١- اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا، تحقيق و تقديم د. شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- ٢- الأعمال الشعرية الكاملة: إبراهيم طوقان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٣، ١٩٩٣م.
- ٣- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي ت ١٠٣٣هـ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ.
- ٤- أمالي ابن الشجري: هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسيني العلوي ت ٥٤٢هـ، تحقيق ودراسة محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢م.
- ٥- البصائر والذخائر: أبو حيان علي بن محمد العباسي التوحيدي ت ٤١٤هـ تحقيق داود القاضي، دار صادق، بيروت ط ١٤١٩هـ.
- ٦- البيان والتبيين: الجاحظ ت ٢٥٥هـ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، بدون ت.
- ٧- تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهرستاني "أبي حيان الأندلسي" ت ٧٤٥هـ، دراسة و تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.
- ٨- تهذيب اللغة، أبو منصور بن محمد بن أحمد الأزهري ت ٣٧٠هـ، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- ٩- التيسير في القراءات السبع: أبو عمرو عثمان بن سعد الداني (ت ٤٤٤هـ)، عنى بتصحيحه أوتويرتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- ١٠- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مراجعة وضبط وتعليق د. محمد إبراهيم الحفناوي، وتخرّيج د. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦م.

- ١١- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: شرح وتعليق تركي فرحان المصطفى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ١٢- حاشية الصبان على شرح الأشموني: الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي ت ١٢٠٦هـ، ضبط وتصحيح وتخرّيج إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- ١٣- حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين محمد بن موسى الدميري ت ٨٠٨هـ، تحقيق أحمد حسن بسح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.
- ١٤- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: شهاب الدين أبو العباس بن يوسف المعروف بـ"السمين الحلبي"، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- ١٥- ديوان الأعشى: ميمون بن قيس، دار صادر، بيروت، بدون ت.
- ١٦- ديوان امرئ القيس: تحقيق حنا الفاخوري، دار الجليل، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
- ١٧- ديوان جميل بثينة، تقديم بطرس البستاني، دار بيروت، بدون ت.
- ١٨- ديوان طرفة بن العبد: تقديم بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، بدون ت.
- ١٩- ديوان عمر بن أبي ربيعة: تقديم أحمد أكرم الطّباع، دار القلم، بيروت، بدون ت.
- ٢٠- ديوان قيس بن الملوّح: ترجمة وتحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م.
- ٢١- ديوان هاشم الرفاعي: المجموعة الكاملة، جمع وتحقيق محمد حسن بريغش، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٥م.
- ٢٢- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، بدون ت.

- ٢٣- شرح الرضي علي الكافية: رضي الدين الأستر آبادي، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بدون ت.
- ٢٤- شرح المفصل: موفق الدين ابن يعيش، طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون ت.
- ٢٥- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون ت.
- ٢٦- العربية والوظائف النحوية: د. ممدوح الرّمالي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ٢٧- غاية الأمان في الرد على النبهاني: أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألووسي (ت ١٣٤٢هـ)، تحقيق أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.
- ٢٨- الفوائد الضيائية شرح كاقية ابن الحاجب: نور الدين عبد الرحمن الجامي ت ٨٩٨هـ، دراسة وتحقيق د. أسامة طه الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الجمهورية العراقية، ط١، ١٩٨٣م.
- ٢٩- الكتاب: أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر المعروف بـ "سيبويه"، تحقيق أ. د محمد كاظم البكاء، دار البشير، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.
- ٣٠- لباب الآداب: أبو منصور الثعالبي النيسابوري، تحقيق أحمد حسن ليج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- ٣١- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ت ٧١١ هـ، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ٣٢- اللباب في الجمع بين السنة والكتاب: جمال الدين علي بن زكريا بن مسعود الأنصاري الخزرجي المنبجي (ت ٦٨٦هـ)، تحقيق د محمد فضل عبد العزيز المراد، دار القلم، سوريا،

ط ٢، ١٩٩٤ م.

- ٣٣- اللغة العربية مبناها ومعناها: د. تمام حسّان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٧٩ م.
- ٣٤- مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجبل، بيروت بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.
- ٣٥- مجموع أشعار العرب، ديوان رؤبة بن العجاج: اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد البروسي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠ م.
- ٣٦- مدخل إلى دراسة النحو العربي في ضوء اللغات السامية: د. عبد المجيد عابدين، مطبعة الشبكي، القاهرة، ط ١، ١٩٥١ م.
- ٣٧- معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السري الشهير بـ"الزجاج"، شرح وتحقيق د. عبد الجليل عبده شليبي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ م.
- ٣٨- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت ٢٠٧ هـ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠ م.
- ٣٩- معاني النحو: د. صالح السامرائي، دار الفكر، الأردن، ط ٢، ٢٠٠٣ م.
- ٤٠- مغني اللبيب عن كتب الأعراب: جمال الدين ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١ هـ، تحقيق وتعليق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، مراجعة سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت ط ٥، ١٩٧٩.